٨٩

روايات احلام

الشوق المكسور

www.liilas.com

روايات احلام

الشوق المكسور

ـ هل تتصورين عناوين الصحف؟ الوريثة الهاربة وُجدت في مزرعة معزولة مع رجل سيء السمعة!

ـ وهل سمعتك سيئة؟

ـ جداً!

كانا هاربين التقيا على حافة الزمن. دنيس الهاربة من زواج مدبر فرضه عليها أبوها، التقت اندريا ميكوري الرجل الشديد الغموض المختبئ، في منزل معزول وسط الجبال الإسبانية. كان من الممكن لهذا اللقاء أن ينتهي كما بدأ، لولا زهرة الحب التي بدأت تتفتح في قلب دنيس، ولولا حادثة في ماضي اندريا جعلته يعتبرها العدو الأول.

www.lilas.com

لبنان ٣٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

قرش جنيه
٥ ٠

روايات احلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة
والنشر والتوزيع ش.م.م.
ص ب ٨٢٥٤/١١ - بيروت - لبنان.

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم
جميع حقوق الطباعة والنشر والاقتباس والتأليف محفوظة للشركة.
التوزيع الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

تنضيد وطباعة مؤسسة دلتا للطباعة والنشر
حارة حريك ت ٨٢٣١١٨ - ٣/٢٨٧١٥٨

١ - رجل في العتمة

واجهت دنيس بيرالتا أباها، الصناعي الياسكي، والموظف الحكومي، ديمتري بيرالتا، متوردة الوجه، لامعة العينين. ورن صوتها في صالون منزله الأنيق الواقع في ضواحي مدينة «بيلباو».

- لن أتزوج خوان دورينالدا. ولن تستطيع إجباري على هذا!

احمرّ وجه ديمتري الوسيم، البدين قليلاً، بشكل بشع.

- مساعدة، مساعدة! دنيس، أنا والدك وأطلب إليك أن...

ردت ابنته المتمردة قاطعة:

- هنا لُبّ المشكلة. أنت تطلب دائماً إنما لا يحق لك أن تطلب أن أفعل شيئاً. ليس لك عليّ حقوق البتة. أنا إنسانة ناضجة تملك قرارها وهذا يعني أنني أستطيع أن أختار من أتزوج إن أردت الزواج.

رد ديمتري بلؤم:

- لن يكون ذلك ما دمت تعتمدين مالياً عليّ! ستنفذين ما أقوله، وستتزوجين الرجل الذي اخترته لك.

ارتدّ عنها مخللاً أصابعه في شعره البني الذي بدأ يشيب عند الصدغين. وتمتم:

- ديو! يا إلهي! ما كان عليّ أن أجعل جولي تقنعني بإرسالك إلى مدرسة إنكليزية بل كان يستحسن لو أرسلتك إلى مدرسة للراهبات هنا في أسبانيا، لتعلمك الراهبات واجباتك تجاه أبويك، كاحترامهما

وإطاعتهما في كل شيء.

ـ وهل كن سيعلمنني الزواج برجل لا أحبه؟ أشك في هذا.. أشك كثيراً.

التفت إليها مجدداً:

ـ الحب؟ أهذا كل ما في الأمر؟ أتقولين إنك لا تريدين الزواج بخوان لأنك لا تحبينه؟ حباً بالله.. لم أسمع قط بهراء كهذا!

ـ هذا ليس هراء.. إنه إحساسي.

ـ لكن الناس لا يتزوجون من أجل الحب بل من أجل الأمان والصحبة.

ـ ألهذا تزوجت أمي؟

شحب وجهه هو في هذه المرة فأردفت:

ـ طالما صدقت أنك كنت تحبها إلى درجة أن تكسر التقاليد بزواجك بمن هي من غير بنات وطنك.. اتخذت زوجة غريبة، امرأة إنكليزية لم تكن امرأة ثرية أو صاحبة أملاك بل امرأة جميلة فقط.

صاح بجفاء: «دنيس.. ليس لذاك علاقة بهذا».

ـ ليس له علاقة؟ بل له علاقة وعلاقة كبيرة.. أنت تلوم ثقافتي الإنكليزية وتجعلها السبب في طريقة تصرفي. ولكنني مثلك في أكثر من وجه. لن يملي علي أحد شيئاً.. ولن أتزوج خوان.

ـ ولكن يا حبيبتي، لقد تمت جميع الترتيبات.. والضيوف على وشك الوصول في أية لحظة.

كان الصوت الهادىء الإنكليزي اللكنة للمرأة التي كانت جالسة بهدوء تصغي إلى حوار الأب وابنته.. إنها في أواسط الخمسين ومع ذلك بدت جولي ويلسون، خالة دنيس وعرابتها أصغر من عمرها بكثير.. جسدها نحيل، وشعرها الأشيب الأشقر يلمع كأشعة الشمس الشاحبة. وعيناها شديدتا الازرقاق، فيهما تعبير مبهم وهي تنظر إلى ابنة أختها، التي قالت:

ـ وأنت لا تفهمين أيضاً. أنت تريدين هذا الزواج بمقدار ما يريده هو.. حاولت القول لكما منذ أسابيع، إنني لا أريد الزواج.. فلست مستعدة له. ثمة أمور كثيرة أريد القيام بها قبل ذلك. أريد زيارة أماكن كثيرة وأريد التعرف إلى كثير من النّاس.

ردت جولي بهدوء: «تستطيعين فعل ذلك وأنت متزوجة.. دنيس، حبيبتي.. أنت تعانين فقط من خوف ما قبل الزواج وهو خوف مررنا به جميعنا.. لماذا لا تذهبين لتلعبي التنس، فبذلك تشغلين نفسك في اليومين التاليين؟ ستشعرين شعوراً مختلفاً عندما ترين خوان مرة أخرى. أعترف أنكما كنتما منفصلين منذ مدة إنما هذا أمر لا يمكن تجنبه.. ستكون غداً تجربة للتمرن على المراسم وبعد غد ستقام حفلة راقصة ستشعرين فيها بأنك أفضل حالاً وأكثر استقراراً».

نظرت إلى خالتها: أتؤمن حقاً بما تقوله؟ ألا تفهم أبداً؟

استدارت تنظر إلى أبيها.. كان يراقبها بعينين سوداوين باردتين.. تتابعت أفكارها: وهو لا يريد أن يفهم.. أنا بالنسبة له مجرد رهان يريد اللعب به لضمان صفقة تجارية، يريد عقدها مع والد خوان.. أنا مجرد رهان.. ضمان.. هذا كل شيء.. لست سوى بيدق يتحرك فوق رقعة الشطرنج، ليمسك بالملك. وكأنه من غير المفترض بي أن يكون لي أحاسيس خاصة.

هذان أقرب الناس إليها، هما القريبان الوحيدان اللذان يمكنها الاعتماد عليهما وقت الحاجة، وهاهما يخذلانها في وقت واحد. ارتدت على عقبيها راكضة من الغرفة إلى الممر الأنيق الملتوي الغني باللوحات الثمينة، ومنه إلى الدرج العريض فالرواق الطويل حيث المزيد من اللوحات الثمينة، وأخيراً إلى باب جناحها المزدوج، ثم إلى غرفة جميلة وهناك وقفت تسحب أنفاسها بجهد وتفكيرها مشتت يبحث عن حل لمشكلتها..

فتحت باب غرفة جلوسها الخاصة، ونظرت حولها تنادي:

www.liilas.com

- خوانيتا.. خوانيتا!

لكنها لمّا لم تجد أحداً فتحت باب غرفة ملابسها الصغيرة، وتناولت منها حقيبة صغيرة أنيقة ثم أسرعت تنتزع بعض الملابس من مشاجبها وتدسها في الحقيبة، ثم أضافت حذاء إليها وأقفلتها.

أدخلت الحقيبة معها إلى غرفة النوم، وانتقت حقيبة تعلّق بالكتف ووضعت فيها كل المال الذي بحوزتها، وبطاقات الائتمان، ودفتر الشيكات وبعض مستحضرات التجميل. ثم نظرت إلى ما تلبسه من ثياب.. تنورة طويلة من الكشمير ذات لون وردي وبلوزة متناسبة.. هذا يكفي، ولكنها ستحتاج إلى معطف.. فعلى ما تذكر أن السماء تمطر كثيراً في الجبال. عادت إلى غرفة الملابس لتختار معطفاً من القطن والبوليستر مقاوم للماء، ثم وضعت وشاحاً حريرياً في أحد جيوبه.

خطت بحذر إلى رواق الدرج في الخارج والحقيبة بيدها.. لم يكن هناك أحد.. تقدمت إلى السياج الحديدي المزخرف الذي يحد الرواق، ونظرت إلى الردهة في الأسفل. هنا أيضاً كل شيء على ما يرام. نزلت بسرعة إلى الممر ومنه إلى أقرب باب إلى الكاراج المحتوي على أربع سيارات.

اقتربت من الكاراج بحذر إذ من الممكن ألا يكون والدها قد ذهب إلى المصنع، وقد يكون سائقه هناك.. من حسن الحظ أن هناك بعض الشجيرات الشائكة التي يمكنها الاختباء خلفها أثناء مراقبة أبواب الكاراج.. شعرت بالراحة عندما وجدت أن سيارة أبيها الكبيرة ليست هناك.. لقد خرج.. تركت مخبأها ودنت من سيارتها المرسيدس التي أهداها إياها والدها في عيد ميلادها الأخير.. وما هي إلا دقائق، حتى كانت تتراجع بها نحو الطريق الداخلية لتقودها بعد ذلك نحو البوابتين الحديديتين الكبيرتين. في تلك اللحظة غمرها إحساس بالحرية، جعلها تحس بالنهور..

قادت السيارة باتجاه الشرق طوال صباح ذلك اليوم، وطوال بعد

الظهر. المسافة بعيدة جداً إلى أعالي البيرينيه، بل هي أبعد بكثير مما كانت تتصور.. وما إن اقتربت من قرية «إيلياردو» غير البعيدة عن الممر الملتف المفضي إلى فرنسا، حتى أحست بالتعب والجوع.

ارتدّ المطر الذي حجب الأراضي حولها بضباب رمادي أزرق، إلى السفوح والحقول، ثم ما لبثت الجبال أن عادت إلى الظهور تلمع قممها الجرداء تحت الشمس.

كانت أشعة الشمس تسطع فوق سطوح الكنيسة القرميدية وفوق منازل القرية البيضاء المعتمشة بين الحقول المليئة بالشعير والذرة.

اضطرت دنيس وقد بهرها لمعان الطريق إلى دوس المكابح بسرعة ليمر ولدان أمام السيارة. تابع الصبي والبنت طريقهما وكأن أشعة الشمس قد ولّدت الفرح في قلبيهما. أحسّت وهي تراقب أقدامهما الخفيفة المرحة بالحسد من سعادتهما الخالية من الهموم.. كم تتمنى لو تعود طفلة!

إنما أليس هذا هو سبب مجيئها إلى هنا؟ ألا تبحث عن البراءة التي عاشتها عندما أقامت منذ ثماني سنوات في مزرعة غير بعيدة عن هذه القرية؟

مرت بالكنيسة ببرجها النحيل المدبب، وبملعبها الملحق بها. تابعت الانطلاق في شارع منحدر رئيسي، يمر بالمنازل ذات السقوف المنخفضة المكسوة بالعشب الصغير والنوافذ المرتفعة.. لم يكن هناك أحد في مثل هذا الوقت من النهار.. ولكنها شعرت بأنها مراقبة من النوافذ الصغيرة الضيقة ممن يسكن هذه المنازل.. إنهم يسألون بالطبع عن هي هذه التي تمر بهذه السيارة الثمينة في القرية وتخرج منها عبر طريق يفضي في النهاية إلى مكان مسدود؟ ستُطرح أسئلة بلا شك، وسيجري البحث عن أجوبة.. عبست دنيس تعض شفتها.. لا تريد أن تكون عرضة للتساؤل.. لا تريد أن يعرف أحد أنها جاءت إلى هنا..

انتهى الطريق وارتفع إلى ما فوق هضبة، ليهبط من الناحية الأخرى،

وعصير. وعشت حتى بنتهي فجأة عند أقدام تلة معشوشبة مرتفعة، حيث أشجار كستناء ضخمة مزهرة. أوقفت دنيس سيارتها تحت الأغصان المنخفضة، وجلست لحظات تصغي إلى قطرات الماء وهي تتساقط على سطح السيارة. لا مكان تختبئ فيه السيارة، وعليها أن تتركها هنا.

خرجت، لتفتح الصندوق الذي تناولت منه حقيبتها، قبل أن تبدأ بتسلق الممر الضيق المتجه إلى أعلى الهضبة الشديدة الانحدار.

جعل المطر الممر موحلاً. لم يكن حذاؤها العالي الكعبين مناسباً للسير في الريف. ولكنها لم تتوقف لتغير الحذاء بحذاء مناسب حملته معها. فقد كانت ملهوفة إلى رؤية ليوني.

بعد وصولها إلى القمة، اتبعت الممر الملتف حول الحقول، ثم دخلت إلى غابة من أشجار الزان والسنديان. كانت جذوع الأشجار قاتمة من الرطوبة، والممر بينها مفروش بأوراق الشجر المتساقطة.

ما إن خرجت من الغابة حتى توقفت لتتطلع إلى واد معزول، انبسط أمامها. كان آخر شعاع من أشعة الشمس المتوارية شيئاً فشيئاً يلمع فوق نوافذ منزل حجري قديم محولاً لون صفائح سقفه إلى ذهبي شاحب. إنه منزل يدعى باللغة الباسكية «إيسكراونا» أي «الشكر من قلب طيب» فيه تعيش ليوني ووالدها العجوز شامروك، الذي كان أجداده يملكون هذه الأرض منذ أجيال عديدة.

وفيما كانت سائرة في الحقل قاصدة المنزل، مرت دنيس ببيت الحمام، ذي البرج المرتفع وهو عبارة عن كوخ صغير فوق شجرة سنديان ضخمة. في مكان قريب مقصورة من الحجر ذات سقف منخفض وخلفها عواميد تعلق عليها في الخريف شباك لالتقاط الحمام البري أثناء هجرتها من اسكندنافيا إلى الطقس الدافئ في إسبانيا.

ما إن اقتربت من المنزل، حتى لاحظت آثار الإهمال. طلاء الجدران الأبيض متسخ ومتقشر في بعض الأماكن. كاشفاً بذلك عن الحجر الغرانيت الرمادي. الحديقة الصغيرة، حيث تزرع ليوني الخضار

والزهور، مليئة بالعشب الضار وبأكوام من أوراق الشجر الميتة. وليس هناك حذاء خشبي للعمل موضوع بترتيب في أسفل السلم. في الواقع كان المكان يبدو مهجوراً لولا سحابة صغيرة من دخان رمادي تتصاعد من المدخنة.

نظرت دنيس إلى الداخل من أقرب نافذة، فشعرت بالراحة لأنها رأت أن نار الموقد تومض في ظلام الغرفة وتلمع على الشمعدانات النحاسية الموضوعة فوق رف المدفأة الحجري. ولكنها لم تر حبالاً من الثوم والبصل والفلفل الحار متدلية من عواميد الخشب المتقاطعة تحت السقف، مما يدل على أن المكان كان مهجوراً أيام الحصاد في السنة المنصرمة.

دقت دنيس على الباب السندياني السميك عدة مرات.. ولم تتلق رداً. ثم تذكرت أن الأبواب في مثل هذه الأماكن لا توصد أبداً، فرفعت الرتاج، ودفعت الباب ودخلت. سرعان ما شمت رائحة الحساء الذي كان يغلي فوق النار، فسال لعابها، وأدركت أنها لم تأكل شيئاً منذ غادرت «بلباو».

وضعت حقيبتها على الأرض، ونظرت إلى ما حولها. كانت المائدة الخشبية الخشنة التي طالما غطتها ليوني بقماش أبيض وقت الطعام معدة لشخص واحد. ثمة سكين وشوكة، موضوعان على الخشب النظيف المصقول.

نادت دنيس بالإسبانية: «ليوني، أين أنت؟»

إنها لغة تعلمتها في طفولتها وهي في أحضان ليوني.

أضافت: «احزري من جاء ليراك؟»

أجبرت صوتها على أن يكون مرحاً، محاولة بذلك إبقاء خيبة أملها بعيدة، تلك الخيبة التي كانت تتسلل إليها خشية ألا تجد ليوني هناك.

جعلها وقع أقدام على الدرج الحجري تستدير مبتسمة ولكن ابتسامتها سرعان ما تلاشت لتحل محلها قشعريرة بداية اجتاحت

www.liilas.com

جسمها، فقد شاهدت بدلاً من صورة ليوني المترهلة رجلاً طويلاً عريض المنكبين، نحيل الخصر، سدَّ بجسده الباب الرمادي. صورة متعكسة سوداء أمام ما تبقى من نور النهار.

وقف هناك لحظة واضعاً يديه على جانبي الباب، ثم دخل وأغلق الباب خلفه، ليستند إليه. وبعد ذلك رفع قبعته الباسكية وعقد ذراعيه على صدره، ينظر إليها.

لم يسهل عليها في هذه العتمة التي لا يعكرها سوى ألسنة النار أن تبين التفاصيل، ولكنها لمحت وجهاً نحيلاً ذا فك طويل وأنف مرتفع العظام. كان يرتدي كنزة مستديرة الياقة، إما سوداء أو كحلية، وسروالاً أسود وثمة سيكارة تتدلى من زاوية فمه، وهو أصغر بكثير من أن يكون والد ليوني.

كلمها فجأة باللغة الباسكية، التي لا صلة لها أبداً بالفرنسية أو الإسبانية. دست يديها في جيبي معطفها تقول بالإسبانية:

ـ لم أفهم. أتكلم الإسبانية أو الفرنسية أو الإنكليزية. أين ليوني؟

بدا دهشاً: «ليوني؟»

ـ سي. ليوني ميكوري. تعيش هنا.

رد بصوت أجش، كمن يدخن السكائر كثيراً:

ـ لم تعد هنا. فقد ماتت منذ أشهر

ـ أوه. لا!

تغلب عليه حزنها فتكلمت بالإنكليزية وهطلت الدموع من عينيها، تنسل إلى خديها. ليوني ماتت. ولم يخبرها أحد. مسحت بظاهر يدها الدموع عن وجنتيها. ليوني، التي جاءت تلجأ إليها رحلت ولم تعد موجودة لتمسح لها شعرها ولتغني لها الأغاني الباسكية الغريبة.. شهقت شهقة صغيرة ثم غطت وجهها بيديها، مستسلمة إلى حزنها. أما الرجل فظل مستنداً إلى الباب بصمت.

تمتمت بصوت حزين بعد أن استردت رباطة جأشها:

ـ لم أكن على علم

ـ لماذا جئت إلى هنا. لتفتشي عنها؟

ـ أملت البقاء عندها بضعة أيام. ولكن بما أنها لم تعد هنا، فسأذهب.

انحنت تلتقط حقيبتها. ولكن يدها لم تصل إليها، فقد رفع قدمه ودفعها بعيداً لتنزلق فوق الأرض الخشبية المصقولة. إلى زاوية مظلمة أبعد من أن تصل إليها فوراً.

فغرت فاها ذهولاً واتسعت عيناها بما يشبه الذعر، فاستدارت تنظر إليه. ما زال مستنداً إلى الباب ولكنه انتزع السيكارة من بين شفتيه، وأمسكها بين أصابعه.

قال ببرود: «قبل ذلك أخبريني كيف وصلت إلى هنا».

تمتمت متلعثمة: «بالسيارة».

ثم تصاعد التكبر العنيد الذي ورثته عن أبيها لنجدتها. فتصلبت ثم سألت بلمسة تعجرف من ديمتري بيرالتا:

ـ من أنت؟

ـ أنا مالك هذا المنزل

ـ هذا غير ممكن، إنه ملك والد ليوني. أين هو؟

ـ مات أيضاً. منذ سنوات. إنها عادة اعتادها الناس. عندما يشيخون يموتون. كان في التاسعة والتسعين.

والتوى فمه بسخرية. فقالت: «إذن. إن كنت مالك هذا المنزل فهذا يعني أنك من أفراد أسرة ميكوري. أنت إذن أحد أبناء شقيقي ليوني؟»

لشقيقي ليوني عدد كبير من الأبناء. رد عليها والسخرية مرة أخرى تطغى على صوته:

ـ سي. أنا أحد أبناء شقيقيها. أين تركت سيارتك؟

www.liilas.com

ـ في آخر الطريق ثم سرت في الحقول والغابة، فلا أعرف طريقاً غيرها

بدا دهشاً: «وهل سبق أن كنت هنا؟»

ـ نعم... منذ ثماني سنوات.. كنت مريضة فظن أهلي أن مناخ الجبال سيشفيني.. كانت ليوني مربيتي فصحبتني إلى هنا.. أمضيت وقتاً رائعاً، وأملت..

تنهدت بأسى ثم صمتت فأتمّ عنها كلامها

ـ أملت في تكرار تلك التجربة الرائعة.. من أين أتيت اليوم؟

ـ من بلباو.

ثم ندمت وتمنت لو أعطته اسم مدينة أخرى.. فإن أعلن والدها عن اختفائها، كما تظن، فلا ريب في أن يذاع الخبر في الراديو وربما سمع هذا الرجل الخبر بعد الظهر

ـ إنها مسافة بعيدة.

كان يتكلم الإسبانية بلكنة أميركية شمالية، ويستخدم جملاً لم تكن مألوفة في إسبانيا

أردف «لا شك في أنك متعبة وجائعة.. هه؟»

ـ أجل

أرسلت نظرة ريبة إلى حقيبتها.. كان لليوني ابن أخ ارتكب خطأ فغادر البلاد منذ سنوات.. أمن الممكن أن يكون هو؟ المشاغب المتهور أندريا ابن ستافرو؟

أعادت نظرها إليه فإذا هو ما زال يراقبها كما يراقب الصقر الحمامة

قالت مترددة «هل.. هناك.. أخشى أنني لا أذكر.. هل في القرية فندق لأبيت ليلتي فيه؟»

رد باقتضاب «ليس هناك فندق.. يمكنك المبيت هنا»

قالت بتوتر

ـ هذا لطف منك إنما لا أظنني أقبل.. لا أريد أن أكون مصدر إزعاج..

قاطعها بعجرفة: «لن تكوني.. ما زال هناك سرير في الغرفة الأخرى حيث كنت بلا شك تنامين فيها عندما كنت هنا، ولن يستغرق تغيير الأغطية وقتاً.. لا أتوقع أن أكون طباخاً ماهراً مثل ليوني لكنني أحضر حساء الدجاج والخضار، وهناك خبز طازج وجبنة للعشاء»

ـ لكن..

أغرت الدعوة دنيس.. فإن لم تجد في القرية فندقاً فستضطر إلى قيادة سيارتها عائدة إلى «إيليارا» عبر الطريق الضيقة الملتوية المظلمة، بحثاً عن مكان إقامة أو النوم في السيارة.

قال بهدوء: «سي سنيوريتا.. كنت تقولين؟»

ـ أتعيش وحدك هنا؟

ـ أجل.

ـ إذن، لا يمكنني البقاء.

ـ ولمَ لا؟

بدت دهشته حقيقية، وقبل أن تفكر في رد ضحك ضحكة جذابة

ـ لا.. لا تردي.. أفهمك.. أنت خائفة من البقاء في منزل ريفي منعزل مع رجل غريب.. ولكن لمَ القلق؟ من سيعرف؟ ومن سيهتم؟

فرك ذقنه بيده.. وأضاف بصوت عميق أكثر إقناعاً

ـ اسمعي أنا أعرض عليك الضيافة، إكراماً لليوني التي أملت أن تجديها هنا.. فلو كانت هنا، لما رفضت ضيافتك، ولن أرفضها أنا أنت على الرحب والسعة للإقامة هنا المدة التي تريدين

طمأنها ذكره لليوني وأثر فيها فهدأ الشكوك في رأسها.. إنه على أي حال قريب مربيتها العجوز.. وستبقى هنا الليلة، على الأقل.. ومن الأفضل لها البقاء حيث الدفء والطعام والمنامة.. مع أنها لن تجد ما جاءت من أجله، الراحة بين ذراعي ليوني وحكمة الريفية الطيبة.. ولكنها

www.liilas.com

على الأقل ستستريح، وتفكر في حل لمشكلتها.

ـ حسن جداً سأبقى وشكراً لك، لكن يجب أن تتركيني أفعل شيئاً لمساعدتك.

وبدأت تخلع معطفها فقال:

ـ بإمكانك تجهيز مكان لك على المائدة.

ابتعد عن الباب ليتناول الشمعدانين عن رف المدفأة. أما دنيس فعلقت معطفها في مشجب خلف الباب الأمامي، ثم اتجهت إلى خزانة الأدوات حيث تتذكر أن أدراجها مليئة بأدوات الطعام، إذ طالما حضرت المائدة مع ليوني. كان للسكاكين مقابض عاجية. أخذت سكيناً وملعقة وشوكة ثم وضعتها على المائدة.

كانت الشموع البيضاء العادية مشتعلة، وهي تلقي وهجاً ثابتاً وضوءاً ذهبياً على الأرغفة الدائرية الطازجة، وعلى الإبريق الأخضر الشفاف المحتوي على عصير العنب الطازج.

عندما وضع مضيفها طبقين عميقين للحسا اتجهت إلى الخزانة مرة أخرى لتجلب الأكواب الزجاجية. لم يجلس على المائدة إلا بعد ما جلست هي. جلس على الكرسي المرتفع الظهر الذي كان العجوز سادوك يجلس عليه دائماً على رأس المائدة، ولكنه على عكس العجوز لم يكن يرتدي قبعته وهو يأكل. بل خلعها ليبدو شعره الأسود المائل إلى الزرقة تحت ضوء الشموع طويلاً بحاجة إلى القص.

كان وجهه نحيلاً وبشرته مشدودة على عظام خدين مرتفعين، ولذقنه زاوية حادة. فمه واسع ولكن ثابت. شفته السفلى ممتلئة أكثر من العليا. تدل على الكرم والدفء في طبيعته غير المرئية.

عندما كان ينزع القشرة السميكة عن الخبز، ألقت أهدابه الطويلة ظلالاً على وجهه. مد لها الخبز النظيف على نصل السكين ثم نظر إليها فجأة، فأحست بالصغار حيال عينيه الرماديتين القاسيتين.

تمتمت: مونشا غراتسياس'

تناولت الخبز وهي تحس بالحرج، لأنه ضبطها تحدق إليه. ولكنها عن غير إرادة منها أعادت نظرها إليه ثانية. وهو يقطع الخبز لنفسه.

لم يكن مزارعاً لطيفاً صالحاً خجولاً. يمضي أيامه في رعي القطيع في التلال الخضراء.. إنه رجل، جال الدنيا وعلمته التجارب. والتجارب حفرت هذه الخطوط على جبهته وخديه وأعطت عينيه بريق اللامبالاة وأثرت في فمه بمرح ساخر.

نظر إليها مجدداً فتلقت لبرهة نظرته بنظرة مماثلة.. مرة أخرى أحست بالحرج من عدم قدرتها على عينيها عنه.. التقطت ملعقتها وبدأت بتناول طعامها.

كان الحساء لذيذاً، مليئاً بقطع سميكة من لحم الدجاج، والجزر واللفت.. تناولت مع الحساء عدة قطع من الخبز الطازج. حاولت إشاحة نظرها ولكنها رغم ذلك ظلت عيناها تتجهان إلى الرجل الجالس على رأس المائدة، وكلما نظرت إليه، كان يرفع رأسه لينظر إليها، وكأنه هو كذلك منجذب إليها بقوة أبعد من سيطرته..

دام هذا الوضع حتى أصبح الجو بينهما متوتراً.. وكان على دنيس أن تكسر الصمت، قائلة بتذمر:

ـ ليتك تتوقف عن النظر إليّ هكذا!

رد باقتضاب: «لا أستطيع»

التقط الإبريق ليصب لكليهما.. وشرب ما في كوبه دفعة واحدة ثم أعاد ملء كوبه، ثم قال:

ـ وأنت كذلك تنظرين إليّ هكذا.. فما بالك؟

دافعت عن نفسها: «أنا حائرة».

اتسعت عيناه بدهشة ظاهرة وسأل بحدة:

ـ حتى أنا؟! لماذا؟

ـ أنت لست كالآخرين.

www.liilas.com

ـ من هم الآخرون؟

ـ أبناء إخوة ليوني. قابلت بعضهم عندما كنت هنا.

هز كتفيه: «هذا لأنني لم أنشأ هنا».

ـ إذن.. أنت لست مزارعاً.

نظر إليها مجدداً يقومها ببطء: «لا، بل أنا بعيد كل البعد عن ذلك».

ثم قال بالإنكليزية:

ـ أحاول أن أتذكر أين شاهدتك من قبل والآن تذكرت.. أنت ابنة ديمتري بيرالتا.. أليس كذلك؟

أجفلها السؤال! رد عليها نظرتها المذهولة القلقة.. وابتسامة خبيثة تلوي فمه.. لا فائدة من الإنكار.. لقد فضحت نفسها بإجفالها..

ردت، بالإنكليزية أيضاً: «وكيف عرفت؟».

رد بهز كتفيه: «ليس الأمر صعباً.. خاصة وقد تذكرت أين شاهدتك من قبل.. كان هناك صورة لك في الصحف منذ أسابيع. إنه الشبه رائع».

ـ ما كنت لأظنك تهتم بهذا الجزء من الصحف.

ـ أنا أهتم بكل ما في الصحف. كما أنني لا أختلف عن غيري من الرجال.. أحب مشاهدة صور الفتيات الجميلات، خاصة وهن لا يرتدين الكثير.

غزا احمرار مفاجىء وجنتيها فقد عرفت الآن عن أية صورة يتكلم.. لقد التقطت لها تلك الصورة وهي تخرج من بركة السباحة في مجمع دوريناللدا في فلوريدا.

أضاف: «كان التعليق تحت الصورة يقول إنك خطيبة وريث ملايين دوريناللدا.. ولكنني لا أرى خاتماً في اصبعك؟».

كانت قد تركت خاتم الخطوبة في علبته في أحد أدراج طاولة الزينة، وفي الواقع أنها لم تكن تضعه كثيراً إذ كان في لمعانه المتباهي

شيء يزعجها.. كانت تشعر كلما وضعته بأنها بيعت، وتم شراؤها.

رفضت الانجرار وراء الطعم الذي رماه مضيفها لنوه، فأتهت الحساء، والتقطت كوب الشراب، تحتسيه ببطء.. كان شراب الخنب حلو المذاق جداً.. لذا وضعت الكوب من يدها.. ورنت إلى مضيفها بطرف عينها.. نظرت إلى وجهه الطويل الفك، وإلى كتفيه العريضتين. بدا باسكياً مثالياً، وربما له شغف الباسكيين بالوجبات الثقيلة والعمل الشاق.. لكنه بحيرها.. سألته وقي نبتها الهاؤه عن التفكير في موضوعها:

ـ تتقن الإنكليزية.. أين تعلمتها؟

ـ عشت في أميركا عدة سنوات.. مع أنني كنت أجيد بعض الإنكليزية قبل سفري.

أخذ يضع بيروه بعض الجبن على قطعة خبز..

فسألته: «أكنت تعيش في ولاية نيفادا؟».

هي تعرف ذلك لأن ليوني كانت قد أخبرتها أن أفراداً عدة من عشيرة ميكوري هاجروا إلى أميركا واستقروا في نيفادا، كمحال العديد من الباسكيين..

رد عليها بحذر: «بقيت هناك عدة أشهر.. خذي بعض الجبن، إنه جيد جداً».

ـ متى عدت إلى إسبانيا؟

ـ منذ ثلاث سنوات.

ـ أتقيم في هذا الوادي منذ زمن طويل؟

ـ وهل يهم هذا؟

أشارت نظرته الفظة إلى أنه يكره تطفلها.. فقالت له: «أنت متكتم جداً».

رد بفظاظة:

ـ وأنت تسألين كثيراً.. ما رأيك لو سألتك عن سبب وجودك هنا

www.liilas.com

عوضاً عن أن تكوني في «بيلباو» تتحضرين لعرسك؟

ـ وكيف عرفت أنني سأتزوج هذا الأسبوع؟

ـ لم أكن أعرف.. خمنت فقط.. وصدق تخميني.. ما الذي حدث؟ هل تردد خوان دي ريتالدا؟ هل جبن أمام فكرة الزواج؟ ألهذا جئت تسعين إلى ليوني؟ لتبكي على صدرها ناشدة العزاء بين ذراعيها لأن خطيبك نبذك قبل الزواج؟

كان الصوت الأجش اللاذع مزعجاً، يزيد من توتر أعصابها.. فالتفتت إليه غاضبة وشعرها الذهبي العسلي يتأرجح حول كتفيها، عيناها الزرقاوان تتطايران شرراً:

ـ لا.. لم ينبذني.. بل.. أنا.. من نبذته.. أنا.. أنا.. أوه! لن تفهم!

ـ أما ليوني فكانت ستفهم.. هه؟ عجباً؟ أليس من الممكن أن يخيب أملها بك؟

ـ ولماذا؟

ـ لأن الفتاة الصغيرة التي تعرفها شبّت وأصبحت متهورة، أنانية، مدللة، تهرب ما إن تضغط عليها مصاعب الحياة.

لذعها انتقاده كالسوط. ثم اندفعت كبرياؤها لنساعدها. لماذا تتركه ينجو بظلمه لها؟

ـ أنت مجنون

ـ ربما.. لأنني أشغل نفسي بحديث كهذا مع امرأة فهناك أشياء أهم بكثير أقوم بها

توقفت نظرة عينيه الكسولة على وجهها فشعرت بمشاعر غريبة تتراقص في كيانها. تحركت بقلق على كرسيها، ثم ردت عليه:

ـ يسهل عليك الانتقاد. كنت أود أن أعرف ماذا فعلت لو وجدت نفسك في موقفي ذاته.

أسند ظهره إلى كرسيه، وأشعل سيكاره ثم نظر إليها ساخراً.. عبر

سحابة الدخان.

ـ لماذا لا تحدثيني عن الموقف. فلربما استطعت أن أقول لك ما كنت لأفعله؟

نظرت إليه بحذر.. أتخبره؟ أتخبر هذا الغريب بما تشعر تجاه زواجها بخوان؟ أيمكنها أن تثق به كما كانت ستثق بعمته ليوني؟ أتثق به؟

قال هامساً بحثها، وكأنه قرأ أفكارها:

ـ جربيني!

بدأت ببطء:

ـ ماذا كنت ستفعل لو أجبروك على الزواج بشخص لا تحبه، شخص اختاره لك والدك؟

سحب نفساً عميقاً مرتجفاً فأردفت بمرارة:

ـ لقد استخدمني أبي رهاناً في صفقة تجارية.. يريد والدي من دوريتالدا أن يستثمر أمواله في شركة سيارات بيرالتا..

ـ فهمت، لكن هذا ليس غير عادي. إنه لمن الطبيعي أن تتلقى الشركات الأوروبية الدعم من مؤسسة أميركية.. وفي المقابل سيصبح والدك مدير عام مؤسسة دوريتالدا..

تمتمت: «هذا صحيح! وأصبح أنا زوجة خوان دوريتالدا، الذي لا يهتم حقاً بالنساء».

اتسعت عيناه وهو يستوعب التلميح الكامن وراء كلماتها، ثم بدا عليه هدوء ملؤه الشفقة.

ـ ألم تقولي لوالدك إنك لا تريدين الزواج بخوان؟

ـ بلى، قلت له ذلك عدة مرات ولكنه لم يصغ إليّ. إنه شخص لا يرحم متى أراد تحقيق شيء ما.. الطريقة الوحيدة ليقتنع أنني أعني ما أقول، وأن زواجي بخوان مرفوض عندي، هو أن أترك المنزل وأختبىء بضعة أيام.

ـ لتستحوذي على اهتمامه؟

ـ هذا ما أرجوه..

أدى حديثهما إلى تلاشي التوتر قليلاً من أعصابها.. ولكنه سخر منها:

ـ يا للفتاة الثرية المسكينة! أليس في عائلتك من يستطيع مساعدتك لإقناعه؟

ـ خالتي جولي تؤازره، إنها شقيقة أمي.. أما أمي فمانت عندما كنت في التاسعة.. أفكر أحياناً أنها لو بقيت على قيد الحياة لكان أبي مختلفاً عما هو عليه الآن.. لما كان قاسياً لا يرحم.. فقدان شخص نحبه كثيراً تجربة قاسية.. ألا تظن هذا؟

ـ وهل كان يحبها؟ أليس من الممكن أن تكون هي الأخرى مجرد رهان في لعبة سلطة كان يلعبها بومذاك؟ اتخاذ زوجة إنكليزية، سيدة معروفة بجمالها، وأرستقراطيتها، لأمر عظيم بالنسبة لرجل كان جده راعي غنم فقيراً.. ثم أنه لم يحتج إلى وقت كثير حتى ينسى خسارته. ألم يرافق نساء أخريات عقب وفاتها؟

نظرت دنيس إليه بذهول.. لم تدهشها معرفته كل شيء عن شؤون أبيها، وعلاقته بالنساء الأخريات أما معرفته بأصل أمها فأدهشتها كثيراً.

سألت: «كيف تعرف هذا القدر من المعلومات عن والدي؟»

ـ والدك شخصية معروفة في هذا الجزء من إسبانيا.. سمعت أبي يتحدث عنه عندما كنت صغيراً.. والآن.. ما هي خطتك؟

دلكت جبينها بأصابعها وهي تشعر بالراحة فهي بطريقة ما غير مهتمة إلا بأخذ قسط وافر من الراحة والنوم.

قالت: «لست متأكدة في الواقع.. لم يكن لدي خطة عندما تركت المنزل. كان علي فقط أن أتركه، وفكرت في البقاء هنا عند ليوني حتى أتمكن من التفكير بروية».

قال ساخراً: «وهل تعبت من جولات التسوق التي لا تنتهي.. هه؟»

احتجت: «ما كانت ليوني لتسخر مني... آه! أعرف أنك لن تفهم!»

مال إلى الأمام مبتسماً فبدا أصغر عمراً، وهذا ما جعل قلبها ينخلع من بضع ضربات..

قال بهدوء: «لكنك مخطئة.. أنت متمردة على السلطة التي تتحكم بحياتك.. وأنا أفهم دوماً معنى التمرد.. كانت الحرية التي ينشدها الفرد ضد الاضطهاد عزيزة على قلبي لأنني ولدت أصلاً متمرداً».

سألت: «أنت أندريا.. أليس كذلك؟ ابن ستافرو».

لم يتحرك.. ولكن عينيه اتسعتا، وقسا. بدا لها أنه متوتر كتوتر القطة عندما يواجهها خطر ما غير أنه ما لبث أن استرخى وأسند ظهره إلى الكرسي، نافخاً دخانه:

ـ سي.. أنا أندريا، ابن ستافرو.. نسيت أنني لم أقدم نفسي.. هل حدثتك ليوني عني؟

ـ القليل.

ـ ماذا قالت؟

جعلتها كلماته الحادة تقفز وهي في كرسيها، تحمّد وجهه بخطوط عنيدة قاسية ووميضت عيناه بعداء واضح وهذا ما أرسل موجات من الارتعاش إلى ظهرها..

قالت متلعثمة: «فقط.. إنك تركت إسبانيا.. على عجل.. لسبب ما.. أنا.. أظن.. فلتنتك مشاركاً في حركة ما.. ولكنها حدثتني أكثر ما حدثتني عن والدك. أترى، طالما تساءلت عن سبب حزن جدك شادوك الدائم. كان يجلس ساعات في المساء، يتظاهر بقراءة كتاب ما علماً أنه لم يكن يقلب منه صفحة واحدة.. أخبرتني أن والدك حطم قلبه في البداية، ثم أنت، بتصرفاتك المتمردة».

ارتعشت عيناه الرماديتان، فامتد ظل أهدابه حتى خديه..

هز كتفيه ثم قال: «كان شادوك دوماً مسالماً».

صمت قليلاً، ونظر إليها نظرة نافذة:

ـ أنا آسف لأنني آلمته.. ماذا أخبرتك عن والدي أيضاً؟

ـ أخبرتني كيف رفض البقاء هنا، وذهب إلى سان سيبستيان ليلتحق مع حركة الاستقلال، وقالت إنه اعتقل بسبب مبادئه وزجَّ في السجن.. ولست واثقة كيف حدث هذا.. ولكنني أعتقد أنه قتل وهو يحاول الهرب من سجنه.

نظر إلى ما وراءها بعينين ساهمتين وكأنه ينظر إلى الماضي ثم قال ببطء:

ـ لكنه تمكن من الهرب. توجَّه إلى الحدود الفرنسية وهو عالم بأن الحرس الخاص يلاحقه.. ولكنه تمكن من إيجاد مخبأ يختبىء فيه.. ولكن من سوء حظه أن أحدهم خانه فكان أن قتل وهو يحاول الهرب مجدداً.

صاحت مذعورة: «هذا مريع..! كم كان عمرك يومذاك؟»

ركز عينيه على وجهها، ثم اعتلت وجهه سخرية:

ـ حوالي ثلاثة عشر عاماً.. كان عمرك سنة تقريبا.

ـ وكيف عرفت؟

ـ لأن الواقعة جرت قبل عشرين سنة.

سألته، مسحورة بقصة موت أبيه العنيف:

ـ أتعرف من وشى به؟

تمتم بطريقة قاسية جعلتها ترتجف:

ـ سي.. أعرف.

كان التعب، ودفء المكان قد تغلبا عليها.. فقد ثَقُل جفناها وتثاءبت غصباً عنها تثاؤبة حجبتها بظاهر يدها. لاحظ هو ذلك، فوقف دافعاً كرسيه إلى الخلف.

ـ إن حملت إحدى الشمعات حملت عنك حقيبتك إلى الغرفة وسأجد لك أغطية السرير.. أراك جاهزة للنوم.

هذا ما كانت ستقوله ليوني في مثل هذه الحال. تناولت إحدى الشموع، وتقدمته مرتقية الدرج الضيق، المبني في جدار المطبخ.. في الأعلى غرفة نوم واسعة كان ينام فيها شادوك، بوصفه ربّ العائلة.. وفي هذه الغرفة ما زال يقبع سرير عريض ذو قوائم نحاسية قديمة الطراز، وخزانة من خشب السنديان السميك وخزانة أخرى مخيفة المنظر.. كان الفراش غير مرتب فعرفت أن أندريا ينام فيه.

كانت الموقد الحجرية تقسم الجدار وعلى كلا الجانبين باب وهذان البابان يقودان إلى غرفتي نوم أخريين. ترددت برهة لأنها لا تذكر جيداً أي الغرفتين كانت تنام فيها منذ ثمان سنوات.. اخترق صوته ترددها:

ـ الغرفة الإضافية هي اليمنى، إلا إذا فضلت النوم في غرفة ليوني؟

ـ لا.. سآخذ الغرفة الإضافية.

نفخت أنفاسها شعلة الشمعة لا إرادياً فتراقصت الظلال على السقف المنحني.

أصدر باب الغرفة صريراً عالياً عندما فتحته، وتسلل ظلها إلى الجدران وهي تدخل.. كانت الغرفة صغيرة، ضيقة، كغرفة راهبة، فيها خزانة أدراج مرتفعة ومقعد من القش..

وضع أندريا ميكوري الحقيبة، وبدأ يفتح الأدراج بحثاً عن الأغطية حتى وجدها في الدرج السفلي، فرمى إلى السرير غطاءين منها وسأل:

ـ هل أعدّ لك الفراش؟

ـ لا.. شكراً لك.. أستطيع إعداده.

شاهدت التواء فمه الساخر، وفهمت ما كان يفكر فيه.. فتصاعد توترها وقالت تتحداه:

ـ ماذا تظنني..؟ عاجزة؟

ـ هذا ما خطر ببالي.. ألم تحصلي دوماً على أفضل ما يمكن أن يشتريه المال من خدم وطهاة ومربية خاصة عندما كنت طفلة؟..

ـ هذا لا يعني أنني لم أتعلم كيف أرتب فراشاً أو كيف أطهو أو

أخيط. كان لدى المدرسة التي التحقت بها في انكلترا صفوف خاصة للعلوم المنزلية، وفي سنتي الدراسية الأخيرة نلت جائزة في الطبخ.. في الواقع..

صمتت.. لماذا تخبره أنها فكرت في العمل رئيسة طهاة.. وهي فكرة خنقها والدها وهي في مهدها عندما أصرَّ على إرسالها إلى مدرسة سويسرية، لتتعلم ما يخوّلها أن تكون زوجة رجل ثري. إن قالت له هذا فلن يصدقها.. لقد كوّن فكرة عنها مخالفة لصفاتها ولن تحصل إلا على ردود سليطة أخرى.

ابتعد إلى الباب قائلاً:

ـ يسرني أن أعرف أنك غير عاجزة. أتجدين الغرفة باردة؟

كان جو الغرفة بارداً رطباً، وهذا يعني أن الفراش بارد خاصة وهو لم يتلق التهوئة والدفء، ولكن كبرياءها لم تسمح لها بالاعتراف بذلك أمام هذا الرجل الذي بدأت ترتجف منه.

ردت: «لا.. أبداً».

ـ أواثقة أنت؟ لاحظت وجود زجاجة للماء الساخن في المخزن. أستطيع بسرعة تسخين بعض الماء لك.. فأنا واثق أن ليوني ما كانت لتتركك تدخلين فراشاً بارداً.

استسلمت: «حسناً جداً».

عقدت ذراعيها على جسدها، تحضن نفسها في محاولة لاتقاء ارتعاشة البرد التي سرت في جسمها.. وسأل:

ـ أتذكرين أين المرحاض.. إنه في الأسفل؟

ردّت بجفاء: «أجل أذكر».

خرج من الغرفة ثم سمعت القفل يتحرك، لكن الباب انفتح مرة أخرى، ودخل أندريا إلى الغرفة حاملاً مفتاحاً كبيراً وضعه على رف خزانة الأدراج. وقال ببرود:

ـ إن أقلقتك نواياي أقفلي الباب.

تحدتها عيناه عبر الفراغ الفاصل بينهما، ولكنها تمكنت من السيطرة على توترها. وأخيراً تركها.

بعد ساعة وفيما هي مستلقية بين الأغطية، وأصابع قدميها الباردة ملتصقة بزجاجة الماء تذكرت سيارتها فهبت من فراشها وقد نسيت كل شيء آخر.

هل ستكون السيارة آمنة وأبوابها غير مقفلة؟ لو شاهدها أحد القرويين فهل سيخبر الحرس المحلي الذي يحافظ على الأمن والنظام في كل أرجاء إسبانيا؟ ألن يفتح الحرس المحلي الباب ويفتش الصندوق الصغير حيث سيجد أن السيارة مسجلة باسمها؟.

لا تريد أن يجد أحد السيارة، لأنها لا تريد أن يجدها أحد. إنها بحاجة إلى بضعة أيام للتفكير.. فماذا يجب أن تفعل بالسيارة؟ نحّت الغطاء عنها، وترجلت عن السرير.. عندئذ اخترق البرد قماش غلالة النوم فاقشعر جسمها. دنت من حقيبتها تفتحها، فتذكرت أنها لم تجلب معها روباً.. هذا ما يحدث للمرء عندما يكون معتاداً على أن يحضر له شخص آخر كل شيء، بما فيه توضيب حقائبه.. فهو يفقد القدرة على التفكير والتخطيط لنفسه.

ما زال معطفها معلقاً خلف باب المطبخ والشيء الوحيد الذي تستطيع وضعه فوق غلالة النوم سوى المعطف هو وشاح صوفي رمته في الحقيبة ظناً منها أنه سينفعها في الأمسيات الباردة.. لفته حول كتفيها.. ثم بحثت حتى وجدت الثقاب الذي تركه أندريا قرب الشمعدان.. ضربت عوداً وأشعلت الشمعة.. دنت من الباب حافية القدمين وهي تحمي الشعلة بيدها.

أصدر الباب صريراً مزعج عندما فتحته. خرجت إلى غرفة النوم الكبيرة رافعة الشمعة عالياً لترى ما إذا كان أندريا في الفراش، فإذا الفراش فارغ. ما زال مستيقظاً!.

جعلها توهج النار القادم من المطبخ ترى طريقها بسهولة ولكنها مع

www.liilas.com

ذلك نزلت الدرج ببطء، وحينما وصلت إلى الدرجة الأخيرة وقفت لتلقي نظرة على المطبخ.

كان أندريا جالساً إلى المائدة. وأمامه قطعة ورق كبيرة بدا أنه يرسم عليها، وكان الدخان يتصاعد من لفافة في زاوية فمه..

إنها المرة الأولى التي تتمكن فيها من مراقبته بدون أن ينظر إليها. وقفت تتأمله.. إنه وسيم، إنما وسامته ليست بمقدار وسامة خوان، فقسمات وجهه أشد خشونة وهذا ما يوحي أنه قاس وعنيد.. ولكن هذه القساوة وهذا العناد يختفيان عندما يبتسم كحاله الآن وهو يبتسم لما يرسمه.

خطت إلى الدرجة التالية وهي تشعر بالفضول لمعرفة ما يرسمه.. ولكن الدرجة الخشبية أصدرت صريراً خفيفاً، فاستدار بحدة.. حالما رآها غطى الورقة بالدفتر الكبير الذي أخذها منه.. موضحاً بهذا أنه لا يريد أن ترى رسمته.

سأل متوتراً: «ماذا تريدين الآن؟»

أطفأ سيكارته، ثم تناول فنجان الشاي. دنت من المائدة ووضعت الشمعدان عليها:

- تذكرت منذ برهة سيارتي.. أتظن أنها ستكون بأمان حيث تركتها؟ نسيت أن أقفل الأبواب.

- إقفال باب سيارة في هذه القرية، كالقول بأنك تنظرين إلى القرويين كلصوص.. لكن، بما أنك قلقة، فسأذهب لأقفلها لك. ألديك المفاتيح؟

- إنها في جيب معطفي.. لكنني لا أخشى السرقة بمقدار ما أخشى أن يراها الحرس المحلي.

- لماذا؟

- إن فتشوها عرفوا أنها لي. وعندئذ سيبدأون البحث عني. وهذا ما لا أريده.

ضاقت عيناه مفكراً:

- همم.. لديك حق هنا.. وإن وجدوك.. وجدوني. وهذا ما لن يكون مناسباً.

اتسعت عينا دنيس لأن كل ما تعرفه عنه يقودها إلى استنتاج واحد. همست: «هل قصدت هذا المكان بغية الاختباء من الحرس؟»

- قصدت هذا المكان لأختبئ، إنما ليس بالضرورة منهم. أفضل ألا تعرف بلاد الباسك كلها مكان إقامتي الحالي.. وهذا ما سيحدث إن وجدت ابنة شخص شهير مثل ديمتري بيرالتا معي. ألا يمكنك تصور عناوين الصحف؟ «الوريثة الهاربة وجدت في مزرعة معزولة، مع ابن سيء السمعة والده سيء السمعة»

- وهل سمعتك سيئة؟

- جداً..

كانت واثقة بأنه يمازحها وبسبب ميلها الطفولي إلى الافتتان بكل ما هو غلط، جذبت نفسها وقالت ببرود:

- في هذه الحالة، سأكون ممتنة إن وضعت السيارة في مكان لا يراها فيه أحد.

رد: «سأفعل ما بوسعي سنيوريتا حتى آخذ أوامرك».

وانحنى ساخراً. ثم سأل بأدب:

- أتودين القليل من الشاي؟.. سيدفئك.

رفع الإبريق ليسكب فنجاناً له أما هي فتفرست فيه عن قرب.. كان شعره مشعثاً وكأنه كان يخلل أصابعه فيه وكانت عيناه بارقتين ولكن فيهما بعض الاحمرار وكأنه لا يأخذ قسطاً وافياً من الراحة.

- لماذا تسهر كثيراً؟! ألا تستطيع النوم؟

- ربما.

راقبته يتناول سيجارة من علبة سكائره. فقالت:

- وأنت تدخن كثيراً أيضاً!

www.liilas.com

ـ وإن يكن؟ ما شأنك إن دخنت كثيراً أو سهوت أكثر؟

ـ لا شيء.. لكن..

ـ لكن أخلاقك الحميدة تدفعك إلى منع رجل مسكين من شيئين يبالغ فيهما.. صحيح؟

ـ يجب أن تعرف أن ما تفعله يضر بصحتك.. و

ـ رحماك لا تلقي علي موعظة عن مساوئي، ستيورينا. واصنعي معي معروفاً.. عودي إلى النوم.. مفهوم.. فهذا الثوب الذي ترتدينه، يلمح إلى أكثر بكثير مما يفترض أن يخفيه.. ويذكرني بالمباهج التي فاتتني في الأشهر التي عشتها في الوادي مع بضع دجاجات وبقرة.

لم يكن لدى دنيس شك في قصده ومع ذلك أدهشها عدم قيامها بردة فعل رافضة.

شهقت بسبب أفكارها تلك.. رمى السيكارة التي لم يشعلها وهب وقال منتشياً بعدما وقف أمامها:

ـ ما بك.. نينا؟

رفع يده إلى صدغها يملس خصلة من شعرها الأسود إلى الخلف بأصابع مداعبة ويكمل:

ـ ماذا تريدين؟ عناقاً أتمنى لك فيه ليلة سعيدة؟ أهذا ما كانت تفعله ليوني؟

ارتدت إلى الوراء بسرعة.

ـ لا

ولكن ما.. أمسكا كتفيها بحيث لم يجد صعوبة في جرها إليه.

إن من الأفضل لها ألا تبدي المقاومة ما دامت تجهل مزاجه. تجاهلت صوتاً داخلياً يشير إليها بسخرية بأنها لم تكن تقاوم لأنها لا تريد المقاومة بل لأنها تريد معرفة ما ستشعر به بين ذراعيه

تسللت يده إلى شعرها المشعث بسبب المرات العديدة التي أدارت فيها رأسها فوق الوسادة. شعرت بأن ما من مقاومة قادرة على إيقاف

أصابعه القوية من شد رأسها إليه.

ولكنه تركها فجأة وعاد إلى الطاولة حيث التقط فنجان الشاي ليحتسي ما تبقى منه ثم وضعه وتناول السيجارة التي رماها ووضعها في فمه ثم انحنى ليشعلها من الشمعة.. استقام، ينظر إلى ما حوله بعدما أسند خصره إلى حافة المائدة رافعاً حاجبيه دهشة:

ـ أما زلت هنا..؟ أتريدين عناقاً آخر؟ آسف نينا ولكن الرغبة في معانقتك انطفأت كما تنطفىء الشمعة بفعل ريح باردة.. لا أغازل عادة فتاة من ثلج لأنني أفضل المرأة الدافئة ذات الخبرة. عودي إلى فراشك، يا طفلة.. وأحلام سعيدة.

كان نبذه إياها قوياً محيراً.. ارتدت على عقبيها ترتقي الدرج بسرعة. قطعت غرفة النوم الكبيرة في الظلام، لأنها نسيت شمعتها. ووصلت إلى الغرفة التي تنام فيها وأغلقت الباب وراءها ثم راحت تفتش على سطح خزانة الأدراج عن المفتاح، ولكنها لم تجده، فتسلقت فراشها، ودست نفسها فيه مرتجفة وتفكيرها مشوش بسبب ما حدث

ظلت مستيقظة وقتاً طويلاً تفكر في أندريا اللغز الغريب. لم تفكر مرة قط في أبيها أو في خوان دورينالدا أو في الضيوف الذين سيصلون من مختلف أنحاء العالم ليحضروا زفافها المعتنى به عناية فائقة ليتم هذا الأسبوع

* * *

www.liilas.com

٢ ـ جبلان لا يلتقيان

استيقظت دنيس على أشعة الشمس الساطعة، المتدفقة من النافذة المواجهة للشرق في غرفة النوم.. فتحت عينيها فرأت الستائر المزينة برسوم الأزهار ترتفع كلما هبَّ نسيم عليل. عندما تذكرت أين هي تمطت في فراشها الذي غرقت فيه في نوم عميق لم تقطعه الأحلام.. مدت يدها لتأخذ ساعتها عن الكرسي حيث وضعتها قرب سريرها.

التاسعة والربع؟ لا يمكن! فتحت عينيها حقاً الآن، ونهضت لتمعن النظر بساعتها.. لا.. لم تخطئ.. هذا ما يحدث عندما لا يكون في المنزل خادمة لتوقظها.

تركت السرير لتتقدم نحو النافذة.. كان الهواء عابقاً برائحة الأرض الرطبة وبعبير أوراق الشجر والأزهار البرية التي لا تراها.. أخذت تنشقها بسعادة، ومالت إلى الأمام تتأمل المنظر.. كان سفح الجبل المنحدر الخالي من الأشجار مغطى بعشب ربيعي جذاب ذي لون أخضر براق إثر ليلة ممطرة، فقطرات المطر العالقة بأطرافه تترقرق تحت أشعة الشمس وراء الاخضرار الممتد حتى الجبل.

دنيس شغوفة بهذا المنظر وقد تولد شغفها هذا منذ ثماني سنوات. وطالما ناقت إلى رؤيته ثانية وطالما تمنت لو يكون لها ولو لفترة قصيرة.. ولكن، كيف يمكنها البقاء هنا الآن بعد رحيل ليوني؟ كيف يمكنها البقاء في هذا المنزل مع أندريا ميكوري؟ المكان ملكه ولا يحق

لها أن تكون هنا.

ارتدت ثيابها بسرعة وهي عبارة عن قميص أزرق وتنورة كحلية، ثم رتبت السرير قبل أن تلقي نظرة على نفسها في المرآة القديمة المرفقة الواقفة على سطح خزانة الأدراج.

كانت وجنتاها خوخيتين وعيناها زرقاوين كالسوسن البري، وشعرها برّاق كالذهب الممتق.. لم تكن جميلة بكل ما للكلمة من معنى ولكن ملامحها الدقيقة، وبشرتها الناعمة الشديدة النقاء وغموض لون عينيها الأزرق، كانت تجذب دوماً اهتمام الرجال أينما حلّت. فقد عرفت حتى وهي في سن مبكرة كيف تتعامل مع الرجال لكان أن اتخذت تصرفاً بارداً متكبراً استخدمته بنجاح حتى ليلة البارحة.

كان من الأفضل لها لو وفرت رفضها للرجال حتى ليلة البارحة.. كانت العجرفة مسطورة بخط عريض عليه.. وكان من الغباء حقاً أن تنزل لتكلمه وهي لا ترتدي سوى غلالة نوم رقيقة، لتقول له إنه لا يمكنه أن يلمسها.. إنها بطريقة أو أخرى، دعته إلى ذلك.

ولكن، ما لم تفهمه هو الطريقة التي تجاوبت فيها معه، مع أنها بذلت جهدها لتبدو غير متأثرة.

اشتدت شقتاها، وضاقت عيناها.. إنها ترغب في الانتقام من السنيور أندريا ميكوري، الانتقام منه لاستخفافه بها والتلميح بأنها باردة.. لم تكن تعرف كيف ستنتقم.. إلا إذا.. إلا إذا.. أحست بإثارة غريبة تجتاحها، إحساس هو مزيج من المشاعر.. إن دفعته حتى يرغب فيها، ثم خذلته في آخر لحظة فستحصل حقاً على انتقامها.

ابتعدت عن المرآة متنهدة ثم سارت نحو الباب الذي فتحته ثم أطلت برأسها حذرة. بدت الغرفة في ضوء النهار، قذرة مهملة، والفراش غير مرتب ولأنه لم يكن هناك أحد عرفت أن أحداً لم ينم فيه.

أين نام أندريا إذن؟ هل نام على مائدة الطعام في المطبخ ورأسه بين ذراعيه؟ التوى فمها بتكشيرة الشمئزاز، وبدأت ترتب السرير باندفاع

مجنون.. رتبت الوسادة وشدت الأغطية. وما هي إلا فترة قصيرة حتى أصبح كل شيء مرتباً ونظيفاً، نظرت إلى ما فعلت برضى ثم راحت تقطع الدرج نزولاً.

كان المطبخ فارغاً حتى من نار الموقد. والمائدة فارغة فلا شيء عليها يدل على أنه كان يسهر هنا كما لا وجود للورق الكبير أو للمنفضة التي كانت مليئة بأعقاب السكائر.. بدا لها أن من سكن هنا قد رحل.

نظرت إلى الباب.. فإذا معطفها ما يزال معلقاً.. ولكن عندما تفقدت جيوبه لم تجد رنين المفاتيح فيها.. فهل أخذ السيارة ورحل؟ هل أدركه النعاس عندما ذهب يتفقدها فنام فيها؟

تسارعت اللهفة في كيانها.. يجب أن تتحقق مما حدث. تناولت معطفها ورمته فوق كتفيها. كانت على وشك أن تفتح الباب عندما ارتفع الرتاج، وانفتح الباب إلى الداخل بحيث اضطرت إلى التراجع بسرعة لتتجنب الاصطدام به. دخل أندريا، وأغلق الباب خلفه، ثم نظر إليها رافعاً حاجبيه باستغراب، مرت عيناه الرماديتان بها قبل أن يسند نفسه إلى الباب، كما فعل ليلة أمس.

سألها بإيجاز: «إلى أين؟»

ـ كنت سأبحث عنك.. عندما لم أجدك، ولم أجد مفاتيح سيارتي، ظننت أن حادثة ما وقعت لك أو..

ترددت وقد اجتاح وجهها الاحمرار، فأنهى جملتها بسرعة:

ـ أو.. أنني سرقتها؟.

مدت يدها: «هل لي أن أسترد المفتاح. رجاء؟»

لم يرد عليها، بل ظلّ ينظر إليها.. كان يرتدي الكنزة السوداء نفسها والبنطلون الأسود ذاته وفوقهما سترة جلدية تصل إلى حدود وركيه لم تكن مزررة. كانت خطوط لحيته النابتة حديثاً تحدد خطوط فكه تحتها. بدا لها فظاً قاسياً فشعرت بالقلق.

قال: «ليست المفاتيح بحوزتي».

ـ أين هي؟

ـ تركتها في السيارة.

ـ لماذا؟

هز كتفيه: «بلا سبب».

ـ هل لي أن أعرف أين هي؟

ـ سأقول عندما تحتاجين إلى معرفة ذلك أي عندما يحين موعد رحيلك.

ردت بنفاد صبر: لقد حان الموعد الآن. لذا أخبرني أين هي.. أرجوك!

نظر إليها ببرود مرة أخرى، ثم ترك عينيه تنتقلان بوقاحة في جسمها.

ـ خلتك تريدين البقاء بضعة أيام حتى تجدي حلاً لمشكلتك.

كان يقلد إنكليزيتها المتكلفة بدقة مدمرة بغية إثارتها..

قالت من بين أسنانها: «جئت إلى هنا لأقيم مع ليوني.. وبما أن ليوني رحلت فسأرحل».

سألها فجأة مغيّراً دفة الحديث:

ـ هل تناولت الفطور؟

ـ لا.. لم أتناوله. لقد استيقظت منذ فترة وجيزة.

ـ إذن، أقترح أن تأكلي قبل أي شيء آخر. ثبت أن النقاش بمعدة فارغة غلطة كبيرة.

دس يده في جيب معطفه، وأخرج منه ست بيضات صغيرة بنية اللون.

ـ أنا مسرور لأن الفراخ السوداء بدأت تبيض ثانية.. هاك.. خذيها.. إنها تكفي للعجة.. هه؟

ـ أجل.. أظن هذا.. لكن..

استخدمت كلتا يديها لتأخذ منه البيض.

www.liilas.com

قال: «تعرفين أن في الغرفة الخلفية طباخ».

تجاهل بقوله هذا كل اعتراضاتها. بعدما أنهى ما قال تجاوزها قاصداً الغرفة الخلفية حيث المخزن الصغير والمرحاض.. وبعد تردد قصير لحقت دنيس به بعدما وضعت البيض في صحن على رف خشبي قرب الطبّاخ..

قالت ببرود: «إذا أردت فطوراً فقم أنت بإعداده».

رد وهو ينهي تعبئة إبريق الماء من صنبور فوق المغسلة الكبيرة:

ـ قلت ليلة أمس إنك ربحت جائزة للطبخ.

ـ هذا لا يعني أنني مضطرة لطهو طعامك.

ـ بوينو.. لا تطهي طعامي بل إطهي طعامك.

أشعل عينة من الطباخ وأكمل:

ـ هذا الماء لحلاقة ذقني وللقهوة.. أحب القهوة قوية سوداء..

مدد ذراعيه وتثاءب، ثم فرك ذقنه فتعالى صوت خشن.

ـ نمت جيداً.. هه؟

ـ أجل.. شكراً لك. تبدو وكأنك لم تذق طعم النوم طوال الليل؟

ـ صحيح.

ـ ولكن ماذا كنت تفعل؟

ـ كنت أكسب رزقي.. سنجدين مقلاة في الخزانة، وزبدة على الرف.. سأعود عندما يغلي الماء.

ـ ولكن..

ووجدت أنها تكلم نفسها. بدا لها أنها تمشي الوقت في قول «لكن» بدون زيادة كلمة عليها. تنهدت ثم خلعت معطفها.. من الخير لها أن تفعل ما اقترحه وتتناول فطوراً لائقاً.. وبما أنها ستطهو لنفسها فلتطهُ له أيضاً. فهو على أي حال، لم يتردد في تقديم جزء من طعامه لها ليلة أمس.

دخلت إلى المطبخ لتعلق معطفها وراء الباب، بالقرب من معطف

أندريا الجلدي.. حدقت إلى السترة لبرهة. إن نوعيتها ممتازة ولكنها تكاد تكون بالية.. ألقت نظرة سريعة إلى الوراء لتتأكد أنها وحدها في المطبخ، دست أصابعها في جيبه على أمل أن تجد المفاتيح ولكنها لم تجد شيئاً.. كان أندريا صادقاً عندما قال إنه تركها في السيارة.. إلا إذا كان يضعها في جيب سرواله؟

عندما عادت وجدت الإبريق يصفر، فأطفأت الغاز المشتعل تحته، وكسرت البيض في صحن عميق ثم شرعت تخفقه. بعد فترة وجيزة أحست به يدخل ليسكب الماء الساخن في كوب معدني.. ثم عبّأ الإبريق ثانية وأرجعه إلى الطبّاخ.. لم يقل لها شيئاً بل دخل إلى المرحاض وأقفل الباب خلفه.

وجدت دنيس المقلاة الحديدية ذات القبضة الخشبية، فوضعت فيها قليلاً من الزبدة. عندئذ تذكرت ليوني عندما كانت تحضّر لها العجة. طالما كانت ليوني ماهرة في تحضير العجة السميكة الخفيفة، المطعمة بالتوابل والأعشاب.. وضعت المقلاة من يدها وخرجت إلى الحديقة.

في مكان ما بين الأعشاب البرية، والأوراق الميتة ستجد بعض خصوص النوم التي تظهر أوراقها في الربيع.. كم مرة أرسلتها ليوني لتقطع السوق الخضراء الشبيهة بميدان القصب، لتضيف نكهة إلى السلطة أو العجة! وجدت النوم حيث توقعت فشعرت كمن يلقى صديقاً بعد غيبة طويلة.. قطعت بعضاً منه بسكين جلبته معها ثم وقفت لحظة تنظر إلى ما حولها، تتذكر كيف كانت الحديقة تمج بألوان ذلك الصيف قبل ثماني سنوات.

ارتفع ناظرها إلى التلال الخضراء وإلى قمم الجبال الزرقاء.. كان النسيم قد سكن وهذا يعني أن اليوم ينذر بالحرارة، فالشمس تطل بقوة من سماء خالية من الغيوم.. أين يمكنها أن تجد مكاناً كهذا، يلبي حاجتها الحالية إلى الهدوء والسكينة؟ الرد هو، لا مكان، لكن كيف تستطيع البقاء هنا مع رجل لا تعرف عنه شيئاً كأندريا ميكوري؟.

عادت ببطء إلى المنزل. محنية الرأس تفكر في مكان تلجأ إليه إذ غادرت المزرعة. ما كادت تصل إلى الباب الخلفي، حتى أحست بأنه واقف هناك، فقد شاهدت قدميه المنتعلتين حذاء جلدياً أسود سميكاً قبل أن ترفع رأسها إليه.

كان عارياً حتى الخصر. بشرته تشع كالبرونز تحت أشعة الشمس ويداه مستقرتان على خصره. وهي وقفة زادت من إبراز عضلات ساعديه وكتفيه.

قال ساخراً: «إن من يراك يظنك لم تشاهدي رجلاً بدون قميص سابقاً».

انتفضت دنيس خائفة ودنت تمر به لتدخل إلى المنزل.

سألها بعدما لحق بها وأغلق الباب:

ـ ماذا كنت تفعلين في الحديقة؟

ـ ألتقط الثوم الأخضر.. الحديقة في حالة فوضى.. كانت ليوني تحافظ على نظافتها وتدأب على ترتيبها.

شرعت تغسل أغصان الثوم الأخضر تحت الماء.. فقال بهدوء:

ـ لماذا لا ترتبيها في أثناء وجودك هنا؟ لن أعترض.. اعتقد أن العمل في الحديقة هو علاج جيد لمن يعاني من القلق أو التوتر.

ردت: «ولكن سبق أن قلت لك إنني سأغادر في أسرع وقت ممكن».

وبدأت تقطع الثوم فوق لوح خشبي صغير.

ـ وإلى أين ستذهبين؟ هل ستعودين إلى «دادي»؟

أجفلتها سخريته فعضت على شفتها، ولكنها مع ذلك ظلت تقطع الثوم.

قالت متمتمة: «ليس بعد، أحتاج إلى بضعة أيام أخرى».

صفرت غلاية الماء. فسارع أندريا يعدّ القهوة لنفسه في كوب من البورسلان. أما دنيس فالتقطت المقلاة ووضعتها فوق عينة السخان

المشتعلة وهي تتمنى لو يذهب لأنها تعرف أنه يستند إلى المغسلة مراقباً كل حركة تقوم بها. هي متأكدة من أنها لا تعجبه. لقد استغل كل فرصة ليسخر منها، ومع ذلك فهناك جاذبية متبادلة بينهما وكأنما كل واحد منهما منجذب إلى الآخر لا إرادياً.

سأل: «إذن.. إلى أين ستذهبين بعد مغادرة المزرعة؟»

ردت كنوع من الدفاع المجنون:

ـ لا أدري، ولا أهتم، بل لا أظن أن أحداً يهتم بما قد يصيبني.

لم تشعر به يقترب حتى لامست أنامله فكها ليجبرها على النظر إليه.

كانت رائحته تبغ، وصابون ريفي قديم الطراز، استخدمه ليغتسل به. عندما رفعت عينيها، رأت بسرعة لمعان عظمة كتفه وزاوية فكه السوداء، ووميض أسنانه البيضاء والانتفاخ في فتحتي أنفه المتكبر ثم بروق العينين العجيبتي اللون فهما بلون الجبل الرمادي.

قال بفظاظة: «إنها طريقة سخيفة للكلام.. بالطبع هناك من يهتم بك».

ردت بعناد: «ليس بعد رحيل ليوني.. كانت الوحيدة التي اهتمت بي يوماً».

قال بصوت عذب هامس:

ـ اسمعي دنيس.. لا حاجة بك إلى الرحيل عن هذا المكان. أفهم سبب مجيئك.. أنت بحاجة لتأمل نفسك. لقد جئت أنا لأسباب مماثلة.

جعلها استخدامه لاسمها برقة، للمرة الأولى، تحس وكأنها طفلة يحاول تهدئتها. سألته وهي تتأمله بعينين فضوليتين:

ـ أنت تعاني المشاكل كذلك؟

هز كتفيه والتوى فمه بسخرية قاتمة: «نعم.. كنت أعاني المشاكل».

ـ أي نوع من المشاكل؟

ـ نواميورتا.. لا يهم ما نوع المشاكل.. ذكرت ذلك أمامك لأظهر لك أنني أقدر حاجتك إلى الاختلاء بنفسك.

التقط كوب قهوته وارتشف ما تبقى منه.

عادت دنيس إلى الطباخ تراقب الزبدة تذوب في المقلاة.. حار مرة أخرى تفكيرها بشأنه. ما طبيعة المشكلة التي دفعته إلى العيش في عزلة؟ أهي مشاكل مع الحكومة مجدداً؟ لا شك أنه عاد إلى إسبانيا بعد استعادة الملكية عرشها حيث أصبح النظام أكثر تساهلاً مع الناس. ولكن، ربما كان متورطاً في بعض الاضطرابات أو المظاهرات التي ثارت.. أو ربما عاد ليتظم صفوف المعارضة! وربما هو داعية سياسية مأجور؟ لقد قال إنه أمضى ليلة أمس يكسب رزقه، وأمثال أولئك يكسبون رزقهم ليلاً؟ كما أنه قال إنه لا يريد لبلاد الباسك كلها أن تعرف مكان سكنه. إذن هو مختبىء حتى يسترد قواه، ليقوم فيما بعد بتنظيم مظاهرات أخرى!

قاطع صوته أفكارها المجنونة:

ـ ما كانت ليوني لتتركك تغادرين المزرعة.

التفتت إليه فإذا هو يستند إلى المغسلة مجدداً ويداه معقودتان على صدره، ينظر إليها من تحت حاجبين معقودين. وأكمل:

ـ وبناء على ذلك لن أسمح لك بالرحيل.. قلت لك ليلة أمس إن بإمكانك البقاء هنا المدة التي تريدينها

ـ لكن..

ابتسم مقاطعاً: «ليس عليك إلا التظاهر بأنني ليوني».

ـ لا أرى...

ـ أعترف أن دور العرابة جديد عليّ.. ولكنني سأبذل قصارى جهدي حتى أحلّ محلها. سأحاول ألا أكون متطفلاً قدر المستطاع.. قومي بنزهات والتقطي الأزهار البرية ولك أن أساعدك واعلمي أنني مستعد للإصغاء إلى مشاكلك ولتقديم يد المساعدة لحلها.. أليس هذا ما كانت لتفعله ليوني لو كانت هنا؟

ـ أجل.. هذا صحيح.. لكن..

استدارت إلى الطباخ مجدداً حيث كانت العجة تنضج في المقلاة. كيف لها التظاهر بأن هذا الرجل اللغز، الجذاب، المثير، هو ليوني الدافئة خاصة بعد الطريقة التي عانقها بها ليلة أمس؟

قال يحثها برقة:

ـ ابقي «ابنة» ابقي.. وأعدك بألا يصيبك مكروه.

دخل إلى المطبخ ثم سمعت وقع أقدامه على الدرج متوجهاً إلى غرفته. أتبقى أم ترحل.. أتبقى أم ترحل؟ ماذا يجب أن تفعل؟ إنها تريد البقاء، ولكن، ما في داخلها ما يحثها على الرحيل.

بعدما أنهت تحضير العجة وضعت رغيف خبز على المائدة ثم شرعت تعد مكاناً لشخصين على المائدة. قسمت العجة في طبقين.. ثم حضرت كوبين من البورسلان، وبعدما أنهت إعداد المائدة دنت من أسفل الدرج تنادي:

ـ الفطور جاهز.

كانت جالسة إلى المائدة تقطع الخبز عندما نزل.. مرتدياً قميصاً نظيفاً من الجينز وسروالاً قديماً من الجينز أيضاً. ولكن رغم رثاثة ثيابه بدا أنيقاً جذاباً رشيقاً رشاقة نمر.

قال متحدياً وهو يجلس في مقعد جده شادوك.

ـ ظننتك لن تطبخي لي.

ـ العجة كثيرة عليّ.. كما أن البيض لك.

شاهدته بطرف عينها يضحك بإعجاب لأنها رفضت الاعتراف بأنها بدلت رأيها فطهت له فطوره أيضاً.

قال: «أعارني الدجاجات والبقرة ابن عمي برنابي، لئلا أموت من الجوع أثناء الإقامة هنا. أما زوجته خوانيتا فتخبز الخبز وتصنع الزبدة وتعصر الجبن.. أتحديتها جيدة.. هه؟»

ـ رائعة.

www.liilas.com

ـ أتذكرين برنابي؟

ـ أظن هذا، إنه ابن دومنيك الأكبر. أليس كذلك؟

ـ صحيح.. ورث مزرعة أبيه ويستخدم أرض هذه المزرعة الآن.. سيمر بنا هذا الصباح مع قطيع من الغنم يريد اصطحابه إلى المراعي الربيعية العالية لقضاء الصيف. وقد وعدته بأن أرافقه.. هل ذهبت مرة إلى «إيتشولاك» أثناء إقامتك هنا؟

ـ لا.. أبداً!

ـ إذن، أقترح أن نرافقهما. إنه يوم جميل والمناظر من الكوخ هناك إيستوبندو!..

استخدم كلمة يستخدمها كل إسباني لوصف ما هو خارج عن هذا العالم. نظرت دنيس إلى النافذة المواجهة لها.. كانت السماء صافية، والشمس براقة. إن هذا اليوم رائع للحاق بالخراف إلى تلال «إيتشولاك» حيث يقبع كوخ حجري قديم، يعيش فيه الراعي طوال الصيف.

قال أندريا بإصرار: «إن مرافقتك لنا لأفضل بكثير من ركوب السيارة لقيادتها إلى حيث لا يعلم سوى الله».

فكرت في أن عينيه الرماديتين تمعنان فيها النظر كثيراً.

ردت ببساطة: «أريد مرافقتكم».

سرعان ما شعرت بالراحة لأنها قررت البقاء هنا.

ـ لكن ألن يظن برنابي أن إقامتي معك غريبة؟

أسند ظهره على كرسيه:

ـ رأيته ليلة أمس، وأخبرته بوجودك عندي. لقد تذكرك، أما بشأن غرفة وضعنا فلم يعلق بشيء. أسعدني قرارك بالبقاء في المزرعة.. والعجة لذيذة! أفهم الآن لماذا ربحت جائزة الطبخ.. وشكراً لك ترتيب سريري. لماذا فعلت هذا؟

ـ كان بحاجة للترتيب.. أعتقد أنك لم ترتبه قط، والغرفة غير نظيفة وبحاجة إلى تنظيف غبارها.

سأل بريبة: «أصبحت فجأة ربة منزل. أتساءل عن السبب».

ـ ولماذا لا أكون كذلك؟ ربما رأى عندي اعتيادي الدائم على المحيط النظيف المريح كراهية للإهمال وعدم الترتيب.

ـ حسن جداً، سأتقبل هذا شرط ألا تفتشي عن طريقة لتليين قلبي القاسي، بتوفير الطعام اللذيذ، والراحة البيتية، التي لا أعرفها عادة.

ردت بحبوبة: «ما أشد غرورك! أتظنني أطهو طعامك وأرتب سريرك بغية إلانة قلبك؟»

ـ أنا مغرور دوماً في ما يتعلق بدوافع المرأة.

ردت بحدة: «إذن، أفترض أنك تعرفت إلى النساء غير المرضيات في حياتك».

رأت عينيه تومضان بشكل خطر ولكنها تجاهلت هذا الإنذار، فقد رأت في ما قالته طريقة للانتقام منه على بعض ملاحظاته الحادة. وقفت ترمي خصلة شعر متمردة وراء أذنها، وتجمع الأطباق التي استخدماها وقالت:

ـ أنت تطري نفسك كثيراً إن ظننتني أهتم بك.. أعني.. ماذا هناك ليجذبني إليك؟ قلت بنفسك إنك فقير.. ومن الواضح أنك تحب العزلة. في الواقع أكره أن أفكر في الحياة التي تعيشها أو في اللاتي تعاشرهن. يقول أبي إن أمثالك ممن ينظمون ويشاركون في المظاهرات والاضطرابات غالباً ما يكونون جهلاء أو أعضاء في عصابات متحاملة مولعة بالأذى.. لا.. أنت لست من الصنف الذي يجذبني.

وقف ببطء مهدداً وقد ومض الغضب في عينيه، فارتدت إلى الوراء.

ـ أيتها السافلة المتعجرفة!

لم تكن العدائية في صوته أقلّ تأثيراً من صفعة على الخد، ولكنها لم تتراجع، بل واجهته بكبرياء برزت من خلال شموخ أنفها ومن نظرة عينيها المباشرة.

تبادلا التحديق عدة لحظات وكأنهما قطتان تتأهبان للهجوم ثم ما

لبث أن تناهى إليها عبر النافذة المفتوحة أصوات عدة أجراس صغيرة.. بذل جهداً ليسيطر على أعصابه التي كانت تشتعل في داخله، أما وجهه فتحول إلى قناع قاس. رمى عقب سيجارته في الموقد المنطفىء، ثم قال بفظاظة:

ـ لن يكون هناك مشكلة في أثناء إقامتك ما دمت تذكرين صفاتي.

تجاوزها ليفتح الباب ثم سألها:

ـ أتسمعين الأجراس.. الأغنام قادمة إلى هنا بصحبة برناني.

نظر إلى قدميها: «هل هذا هو الحذاء الوحيد الذي بحوزتك؟ إنه غير مناسب للسير».

ـ لدي حذاء آخر.

كانت ترتعش بشدة، حتى اضطرت إلى وضع الصحون على الطاولة مجدداً.

قال آمراً: «إذن، اذهبي وانتعليه.. هذا إن كنت ما تزالين راغبة في مرافقتنا بالطبع، هذا شأنك.. لا تقولي أبداً إنك أجبرت على مرافقة راعي غنم فقير و.. ماذا أسميتني؟ آه أجل.. عضو عصابة جاهل».

كانت سخريته لاذعة. نظرت إليه نظرة غاضبة قبل أن تقترب من الدرج وصولاً إلى غرفة النوم الإضافية، وأغلقت الباب خلفها بضربة قوية رجّت المنزل كله، وأسقطت بضع شرائح صغيرة من الطلاء في السقف. وبعد ذلك رمت نفسها على حافة السرير الذي أصدرت رفاصاته صريراً مرتفعاً.

لم تشعر بالرضى بسبب انتقامها منه بتلك الطريقة بل لم تشعر بأقل انتصار لأنها نجحت في جرح مشاعره.. لماذا؟ لأنها تعلم في قرارة قلبها أن ما قالته له غير حقيقي.. فهي منجذبة إليه، ومفتونة برشاقة جسده النحيل النشيط وببريق عينيه الخبيث حين يبتسم، وبالانطباع الذي يوحي بأنه فعل أشياء مجنونة، وربما خبيثة. إنه مختلف عن جميع الرجال الذين تعرفت إليهم سابقاً وهي ترغب في التقرب منه لتتعرف إليه

أكثر فأكثر.

ارتفعت يدها إلى عنقها وقد تذكرت ليلة أمس.. يا إلهي.. إنها لا تريد أن تنجذب إليه.. لا تريد أن تعلق بشباك شخصيته المثيرة للاضطراب.. إنها خائفة أن يؤدي مثل هذا التجاذب إلى ما لا تحمد عقباه.

ثم.. أليس من الحكمة لها الامتناع عن مرافقته وابن عمه إلى التلة؟ أليس من الأسلم لها البقاء هنا في المنزل؟ نهضت لتتوجه إلى النافذة.. كانت انحناءات سفوح الجبال الزرقاء الخضراء تومىء إليها وتغريها بالسير في جنباتها لتنسى مشاكلها في فضائها الرحب وفي شقوقها التي تتدفق فيها السواقي بصوت مرتفع.

جعلها صرير الباب خلفها تنتفض. وقف أندريا هناك.. كان قد ارتدى كنزته الكحلية، وأمسك بسترته الجلدية دليل استعداده للرحيل. سألها بقسوة كأنه يريد منها أن تذهب ولكنه كره أن يطلب منها:

ـ هل أنت قادمة أم لا؟

تحدته قائلة: «سأذهب إن كنت لن أكون مصدر إزعاج لكما».

رد ببرود: «ستكونين مصدر إزعاج إن تجولت بمفردك. عليك ألا تبتعدي عنا. ألا يمكنك تبديل حذائك بنفسك؟ أكانت ليوني تفعل ذلك؟».

ـ لا.. لم تكن تفعل.

فتحت حقيبتها تخرج منها حذاء جلدياً متيناً إنكليزي الصنع. خلعت صندلها وجلست على حافة السرير لتنتعل الحذاء الجلدي، أما أندريا فاستند إلى الباب يراقبها، التقطت حقيبتها لترميها فوق كتفها.. ثم رفعت رأسها متحدية:

ـ أنا جاهزة.

تقدم يمسك بالحقيبة محاولاً انتزاعها عن كتفها.

ـ لن تحتاجي إليها.

www.liilas.com

قالت بعناد، تمسك بيد الحقيبة:

ـ بلى سأحتاجها.

ـ لماذا؟ ستعيقك فقط.

ـ فيها ما قد أحتاج إليه.

ـ مثل ماذا؟

ـ أشياء نسائية.. لن تكون مهتماً بها.

إنها بحاجة إلى مالها لأنها إن وجدت أمامها فرصة للخروج من هذا الوادي، فلن تتردد.. ليس عليها إلا معرفة مكان إختفاء سيارتها.

رفع حاجبيه ساخراً:

ـ حسن جداً.. سأحملها لك.. فالمال الذي تضمينه فيها ثقيل الوزن.

انتزع الحقيبة بشدة ورماها فوق كتفه، وعيناه تتحديانها. شعرت مرة أخرى بالريبة تغزو تفكيرها.. إنه يجعل الأمر يبدو وكأنها تبقى هنا بملء إرادتها، ولكنه في الواقع يصعّب عليها أمر المغادرة بطريقة أو بأخرى.. وبدأت تحس بأنها عالقة في فخ.

تناولت في الأسفل معطفها من خلف الباب، وارتدته.. كان برنابي ميكوري في الخارج ينتظرهما وهو يتفث غليونه بصبر.. إنه يعمر أندريا ولكنه أقصر قليلاً، وجهه المستدير لم يكن متجعداً مع أن الشمس لوحته.. إنه بريء المظهر فعيناه البنيتان هادئتان كعيني بقرة.. التشابه بين الرجلين هو فقط في لون البشرة السمراء واسوداد الشعر.

عندما ألقت دنيس التحية على برنابي هزّ رأسه ولم يقل شيئاً.. وسرعان ما لحق الثلاثة بقطيع الغنم الذي يزيد على مئتي رأس من الحيوانات البيضاء الصوف المتدافعة على عجلة لتتجاوز المنزل، والراكضة صعوداً نحو سطح التلة متخذة طريقاً شقته على مرّ السنين حيوانات عديدة لا حصر لها.

وُشم كل خروف بعلامة تظهر أنه ملك لقطيع ميكوري.. عندما

سألت دنيس برنابي الذي فضلت السير معه على السير مع أندريا قال لها إن الخراف من نوع «المانيش» وهي نسل صافي جلبه الرومان إلى المنطقة منذ ألفي سنة.

سارت الأغنام صعوداً لتقطع جسراً ضيقاً مصنوعاً من الأخشاب، معلقاً فوق شق عميق شقته المياه المتدفقة بقوة فوق الصخور السوداء وقسمت السفح إلى قسمين. ارتفعت الشمس إلى الأعلى، وأحست دنيس بالحرارة، فخلعت معطفها لتحمله على كتفها ثم تمنت لو امتنعت عن ارتداء الجوارب النايلون التي كانت تعلق بأشواك نبتة العليق كلما خطت إلى الأمام.

كان العصر قد حلّ عندما وصلوا إلى «الابتشولاك». كان الكوخ الصغير مبنياً من قطع صخرية مختلفة الأحجام، وهو يطل على المراعي السابحة تحت أشعة الشمس التي تجعل المساحات المرقعة بالألوان وكأنها حية وعلى مسافة بعيدة بدت قمم الجبال تخطف الأنفاس بجمالها.

بينما كان أندريا وبرنابي يفرغان حمولة البغلين من أكياس المؤن ويحملانها إلى الكوخ كان ماتويل الراعي الصغير بمساعدة كلبي رعاة يبعد القطيع عن الكوخ إلى المرعى حيث سيرعى طوال الصيف. وعندما عاد كانت النار مشتعلة في موقد وسط الكوخ والغداء جاهز.

جلس الجميع على بساط خشن مصنوع من السرخس المجفف. وتناولوا «يخنة» لحم الغنم اللذيذة، التي جرى تسخينها، في وعاء أسود كبير، معلق فوق النار.. تبع «اليخنة» الخبز والجبن اللذين لا بد منهما.. وشربوا اللبن من «التشاكاو» وهو وعاء من الجلد يُشرب منه السائل عبر شق صغير. تعلمت دنيس احتساء الحليب بين التعليق والضحك بعد تشجيع من برنابي وظل الحال هكذا حتى نسيت التوتر القائم بينها وبين أندريا، المتكىء إلى فراش خشن قربها.. عندما قالت له إنها تشعر بالسعادة هنا وأجاب أنه يحس بالشيء نفسه، نظرت إليه

باستغراب. كان يستند إلى الجدار، وعيناه نصف مغمضتين بكسل وابتسامة خفيفة تذاعب فمه.

- تذكري أن جدك كان راعي غنم باسكياً.

- وماذا في هذا؟

- لا بد أنك عشت في كوخ كهذا في الصيف. عندما كان جدي شادوك شاباً عاش عيشة رعاة الباسك، وجدك عاش العيشة ذاتها. لقد أصبح ذلك ذكرى إنما لا يعني الأمر أن يمحى من الذاكرة بعد بضعة أجيال. أتعرفين؟ أستغرب أن تشارك أنا وأنت ميراثاً مشتركاً. لدينا على الأقل جذر واحد مشترك، أما الآن فتفصلنا فروقات كثيرة، مثلما يفصل الشق الجبل إلى نصفين.

أسر نظرتها مرة أخرى إنما بدون أن يكون في عينيه غضب هذه المرة. كانت شرارة ما من المشاعر تتطاير بينهما. حبست دنيس أنفاسها ثم ارتدت عنه بحدة، لتنظر إلى دخان النار.

فكرت في الفروقات القائمة بينهما. لقد عاشت في محيط متناسق مريح. أما هو فعرف معنى الحرمان، عرف كيف يسير في الجزء المظلم من الشارع، واصطدم في هذه الزوايا المظلمة مع أناس شرسين، إنها تنتمي إلى النظام الذي يثور ضده. والدها أصبح عبر وسائل ذكية ماكرة أحد أغنى الرجال في البلاد. أما والده فقتلته رصاصة في ريعان حياته. مع ذلك فهناك هذا التجاذب بينهما. هل السبب فقط أنهما يتشاركان الإرث القومي نفسه؟ أم أن السبب شيء آخر أبسط من ذلك بكثير؟

نظرت إليه مجدداً فإذا به وبا للدهشة نائم! كتفاه ملتصقان بالجدار ورأسه إلى جانبه. أرهقه السهر البارحة وها هو يسترخي تحت تأثير الدفء والسكون، ورفقة الرجلين. وقف برنابي ومانويل، ليغادرا الكوخ بسرعة.

أما دنيس فظلت حيث هي تتأمل آندريا .. بدا وهو نائم أقل قلقاً وأصغر عمراً وأضعف حالاً.. وجدت أنها تتصوره قبل عشر سنوات.

قبل أن يضطر إلى مغادرة البلاد.. وكم تمنت لو تعرفت إليه قبل أن تشبه التجربة.

سرعان ما نبذت هذه الفكرة السخيفة العاطفية.. فمنذ عشر سنوات كان الفرق بين عمريهما يبعدهما أكثر من الآن. منذ عشر سنوات، كانت مجرد تلميذة صغيرة غير مدركة، وغير ناضجة في الحادية عشرة من عمرها، تلميذة لن يلاحظها أبداً طالب الحربة وعاشقها، آندريا، حتى ولو التقيا.

لو التقيا وقتذاك، لما كان بينهما هذا الانجذاب ولما رغبت في العبث بخصلات شعره الناعم المتدلية إلى جبهته ولما أرادت الاتكاء إلى الجدار قربه حتى تضع ذراعها حوله لتجذب رأسه إلى كتفها ليستقر براحة أكبر.

يا إلهي! فيمَ تفكر؟ هبت واقفة، وقلبها يخفق بجنون. يجب أن تخرج من هنا، أن تبتعد عنه. تناولت معطفها عن الفراش الصغير، وارتدته، ثم وضعت حقيبتها على كتفها، وتراجعت نحو الباب المنخفض، تراقبه في حال استيقظ. أحنت رأسها من تحت الدعامة الحجرية.. وخرجت نحو الشمس الدافئة. التفتت فوجدت برنابي مستنداً إلى الجدار من الجهة الخارجية. كان يدخن الغليون وينظر حالماً إلى المنحدرات المعشوشبة، حيث تتحرك الأغنام وهي ترعى كأنها نقاط بيضاء فوق صفحة خضراء برّاقة.

قالت له: «آندريا نائم».

- فلنتركه نائماً إنه متعب. سننتظره حتى يستيقظ ثم ننطلق عائدين إلى الوادي.

قالت بعزم وتصميم: «أنا عائدة الآن».

احتجَّ قائلاً: «قد نضيعين نينا.. أمامنا اليوم بطوله فلِمَ العجلة؟»

- لن أضيع.. أذكر الطريق جيداً.

خطت إلى الأمام لتبدأ السير على طريق الغنم.. فتقدم برنابي

بخطوات سريعة يقف أمامها.

ـ لن يرضى أندريا إن تركتك تعودين بمفردك. من الأفضل أن تنتظري، سينيوريتا.. حتى يستيقظ. ثم نعود كلنا.

قالت بإصرار: «لكنني لا أريد انتظاره.. أريد الذهاب حالاً».

بدت حتى لنفسها مدللة فظة السلوك.. تونر برنابي المرح عادة، وقال متنهداً:

ـ إذن يجب أن أوقظه.

كانت هزة كتفيه هزة رجل ناضج يتحمل عناد فتاة أفسدها الدلال. عندما توجه نحو باب الكوخ ترددت دنيس، ثم نظرت إلى درب الخراف فوجدت أنها لن تبتعد كثيراً قبل أن يلحق بها الرجلان. ركضت وراء برنابي ثم وضعت يدها على ذراعه توقفه، وهمست:

ـ لا.. لا توقظه.. سأنتظر.. أخبرني عن ليوني ولماذا ماتت فجأة.

بدت عليه الراحة.. أما هي فقفزت الشكوك إلى عقلها فظنت أن أندريا طلب منه منعها من العودة بمفردها إن حاولت.. انتابها مرة أخرى إحساس بأنها عالقة في فخ، ولكنها صرفت هذه الفكرة السخيفة عنها. لقد أتت بمحض إرادتها، وستغادر المكان بمحض اختيارها.

كانت الشمس حارة جداً على الوجوه والجو ثقيلاً ساكناً وفي السماء سحب بيضاء كبيرة تتلبد خلف القمم. كان الصمت الكئيب ثقيلاً لا يقطعه سوى رنين أجراس الخراف وخرير المياه في الساقية القريبة.

قال برنابي: «السبب قلبها، سنيوريتا.. كان ضعيفاً دائماً. في أحد الأيام وفيما هي تحلب البقرة خذلها»

ـ لم تكن طاعنة في السن.

ـ كانت في السادسة والخمسين من عمرها ولكن العمل الشاق الذي كانت تقوم به والعناية بأبيها العجوز في السنوات الأخيرة، لم يفيداها إطلاقاً.

ـ أسفت أسفاً كبيراً عندما وصلت ولم أجدها في «إيسكرأونا».. لماذا لم يخبرني أحد بموتها؟

صمت بضع لحظات متابعاً مخ غليونه، ناظراً إلى اخضرار الوادي العميق.. ثم قال ببطء:

ـ ربما أحسسنا بأنك غدوت غير مهتمة بها.

تدافعت دموع السخط إلى عينيها:

ـ لماذا تقول هذا؟

ها هي تواجه ثانية شخصاً غير معجب بها، ليس لما هي عليه، بل لما تمثل.. الثراء وعدم الاكتراث، والتصرف المتكبر، الذي يتماشى أحياناً مع ما يحيط بها. إنما هذا إجحاف وظلم.

ـ كنت أهتم طبعاً لأمر ليوني.. كنت أراسلها في أعياد الميلاد، وأرسل إليها الهدايا.. وربما كان عليّ أن أقوم بترتيبات لها لتلقى عناية طبية لائقة..

طفى بريق الشك على وجه برنابي، ثم تلاشى.. فأردفت بسخط:

ـ أرى أنك تظن أنه كان عليّ المجيء إلى هنا حتى وإن كانت غير مريضة غير أن ذلك كان غير ممكن أعني أن والدي جعلني..

صمتت لأنها أدركت أنها تضع اللوم على أبيها وهذا عذر واه لن يصدقه برنابي.. فأضافت:

ـ هكذا إذن.. أنت كأندريا، تظنني نشأت لأكون فاسدة أنانية لا تهتم لأحد.

ـ لا أظن ذلك سنيوريتا بل أنا لا أستخدم مثل هذه الكلمات لأصف أية امرأة.. ولا أحب سماعها من امرأة.

نسيت كيف أن الباسكيين يأخذون الكلمات بحرفيتها.

قالت: «آسفة.. أنا أكرر ما قاله لي ابن عمك.. هذا ما قاله عني».

ساد صمت قصير ثقيل، ثم سألت بتواضع: «هل لك أن تخبرني

أين دفنت ليوني؟»

ـ إنها في مدافن أسرة ميكوري في الكنيسة.

ردت بصدق: «أريد الذهاب إلى هناك لأضع بعض الزهور. ولأظهر لها احترامي. . أرجوك هلا أرشدتني إلى قبرها اليوم عندما نعود إلى الوادي؟»

تمتم وقد بدا عليه قلق مفاجئ:

ـ اطلبي ذلك من أندريا.

تنهدت بسخط: «ولمَ أطلب ذلك منه؟ ثم ماذا يفعل في مزرعة «إيسكر أونا»؟ . . لم يأت ليزرعها، لأنها مهجورة».

بدا مرتبكاً وقلقاً ثم ازدادت دائرة عينيه البنيتين المستديرتين وهو ينظر إليها.

ـ لقد ورثها، لأنه الابن البكر لابن جدي شادوك البكر، عمي ستافرو. . وتقتضي تقاليد الباسك أن يرث الابن البكر كل شيء.

ردت بتوتر: «أعرف هذا. . لكنه ليس هنا لهذا السبب. . يقول إنه جاء لأنه يواجه بعض المتاعب. . أتعرف ما هي هذه المتاعب؟»

ـ لا. . لا أعرف. . فهذا شأنه. . لا أستطيع أن أقول إلا أنه جاء الوادي ناشداً الراحة والهدوء فترة زمنية معينة. ومن المؤسف أنك جئت لتعكري هدوءه وراحته.

ـ لم أكن أنوي إزعاجه ولكنه طلب إليَّ البقاء إن أردت، فكان أن بقيت.

ـ طلب منك البقاء لأنه يعرف أن ليوني أحبتك، ورعتك وكأنك طفلتها. . طلب منا جميعاً هنا في الوادي ألا نخبر أحداً بمكانك إن جاء أحدهم سائلاً، لأنه يقول إن لا مكان آخر لك لتلجئي إليه، كما قال إن عليك الاختباء لفترة معينة وقد خبأ سيارتك في أحد مخازن الغلال عندي لئلا يراها أحد. . مع أننا نعلم أن المشاكل ستقع على رأسه إن وجدتك أحدهم تعيشين معه في المنزل نفسه.

سألت وهي تخفي انتصارها لأنها عرفت مكان سيارتها أخيراً.

ـ ولماذا تقع المشاكل على رأسه؟

ـ لأنك ابنة رجل قوي معروف. . والآن أعذريني سنيوريتا. . علي التحدث إلى مانويل.

عرفت دنيس أنه يستخدم مانويل عذراً لتجنب الرد على المزيد من الأسئلة. . كبحت اندفاعاً يدفعها للحاق به حتى تسأله لماذا ستجلب بنوتها لديمتري بيرالتا المتاعب لأندريا ولأهل الوادي.

دنت من الجدول فإذا مياهه صافية فوّارة تتدفق فوق صخور برّاقة متدفعة إلى الوادي ببطء، حيث السفوح غير منحدرة كثيراً. أما ضفاف هذا الجدول فغنية بالعشب الأخضر وبالزهور الملونة. طرأت على بالها فكرة، إنها فرصتها وعليها استغلالها. . نظرت إلى برنابي ومانويل. . وناداتهما:

ـ سألتقط الزهور البرية لقبر ليوني. . لن أتأخر.

هز برنابي رأسه مشيراً إلى أنه سمع ما قالت. وسرعان ما نزلت لتلتقط أعواد السوسن البري الأحمر، وعندما جمعت باقة منه، نظرت إلى فوق. . إنها هنا مختبئة عن أنظار أي شخص في «إيتشولاك» ارتدت على عقبيها لتنزل التلة إلى جانب الجدول حيث جذبتها الأزهار وأجمات السرخس المروحي الجديد.

ستلتقط المزيد من الزهور شاقّة طريقها نزولاً بمحاذاة الجدول وبعد ذلك ستقصد مزرعة برنابي، الموجودة على جهة الطريق الأخرى، الطريق التي سلكتها إلى الوادي. وهناك ستجد سيارتها التي ستقودها إلى مدافن الكنيسة لتضع الزهور على قبر ليوني ثم ترحل.

تابعت المسير بمحاذاة الجدول، كانت الحجارة تلتوي تحت قدميها وأغصان السنديان المقطوعة تتحطم وأوراق الشجر تعلق في شعرها. . راحت ضفة الجدول تزداد انحداراً، أكثر فأكثر، وأخذ يمر بين صخور ملساء. . نظرت إلى فوق، فرأت أخشاب الجسر وكأنه معلق في السماء

حيث يتأرجح عالياً فوق الشق.. كانت أمامها المياه البيضاء تزبد وتثير هادرة في تدفقها على الصخور الخشنة.. أنبأها حدسها بأنها لن تستطيع التقدم أكثر، لأن جدران الشق الصخرية مستقيمة وعميقة.

وقفت حيث هي، تنظر إلى ما حولها.. في جهة الجدول الأخرى ممر ضيق يتصاعد بحدة فوق المنحدر، ثم يلتوي بين أجمات شائكة متعلقة بحوافي الصخور وصولاً إلى ممر الغنم الذي يحد أطراف الشق.. وعليها حتى تصل إلى ذلك الممر أن تجتاز الجدول.. إما هذا، وإما أن تنسى الرحيل.

ثمة طريقة وحيدة لاجتياز الجدول.. هناك صخور ضخمة قريبة من بعضها بعضاً بحيث يمكن استخدامها موطىء قدم. صحيح أن الجدول يرغي ويزبد ويفور بين الصخور، ولكن إن سارت بحذر تمكنت من الوصول إلى الجهة الأخرى.

كان الوصول إلى الصخرة الأولى سهلاً.. ولكن شكل الصخرة الثانية الغريب جعلها تتمهل بعض الوقت حتى تضع قدمها في المكان الصحيح.. ولكن ما إن نقلت ثقلها إلى قدم واحدة حتى فقدت توازنها، وانزلق حذاءها الجلدي الصلب فوق الصخرة الرطبة، فاصطدم مرفقها الأيسر بصخرة أخرى تحت الماء.

انطلق ألم لا يطاق إلى ذراعها كلها فكاد يغمى عليها.. ولكن صدمة المياه الباردة التي اندفعت إلى وجهها وشعرها أيقظتها ثانية. شعرت بالألم يتصاعد وبجسمها ينجرف بقوة إلى الأمام نحو منحدر المياه المتدفقة.

تمكنت أثناء انجرافها وتخبطها من المقاومة للوقوف على قدميها وبدأت تجر نفسها بقوة إلى الضفة التي تركتها لأنها الأقرب إليها. وصلت إلى الضفة مقطوعة الأنفاس مرتجفة، ورفعت كلتا يديها لتتمسك بأغصان الأشجار المتدلية لتستطيع السير على العشب المنزلق. انطلق

الألم مرة أخرى بحدة في ذراعها اليسرى وأحست بالغثيان والدوار فتراجعت وفقدت الوعي ثم وقعت مرة أخرى إلى الوراء نحو الجدول.

•••

www.liilas.com

٣ ـ الحمامة والألم

أعادها الألم ذاته الذي أفقدها الوعي إلى عالم اليقظة فتأوهت.

ـ ما الأمر نينا؟ ما الذي يؤلمك؟

كان الصوت الذي طرح السؤال مألوفاً لها. إنه صوت أندريا الذي لم يكن للمرة الأولى ساخراً.

تمتمت، وهي تفتح عينيها: «ذراعي اليسرى».

كانت مستلقية فوق الأرض الصلبة، مستندة إلى جدار. في البداية ظنت أنها في «الانشولاك»، ثم شاهدت شقاً لم يكن باباً بل فتحة واسعة خشنة، استطاعت من خلالها رؤية عشب طويل وسرخس، ومطر ثقيل متساقط.

سألت: «ما هذا المكان؟»

ـ إنه كهف قرب الشلال.

ـ ماذا حدث؟

حاولت النهوض من مكانها لكنه منعها:

ـ انزلقت ووقعت في الجدول، ثم أغمي عليك. من حسن حظك أنني لحقت بك، وتمكنت من رفعك من الجدول ونقلك إلى هذا الكهف.

كان شعره مبللاً وقطرات الماء تتسلل إلى خديه ولكن ما تبقى بدا لها جافاً.. فسألت هامسة: «وهل كدت أغرق؟»

طافت نظرته الرمادية الباردة فيها، وقال بلهجة عملية:

ـ سي.. والآن انزعي عنك ثيابك.

ـ لا! لن أخلعها هنا!

ـ لكنك مبللة حتى العظام وإن لم تخلعي ملابسك أصبت بأنفلونزا أو بالتهاب الرئة.. إن هذه المياه باردة جداً.. وهي ليست بأدفأ من ثلج مُذاب.

أدركت أنها ترتجف فعلاً، وأن أسنانها تصطك وشعرها المبلل يتقطر منه مياه باردة إلى فتحة تمبصها ثم رأت كدمة زرقاء مؤلمة على ساعدها فسألت:

ـ ماذا.. ماذا سأرتدي إن خلعت ملابسي؟

ـ سأعطيك كنزتي فهي جافة.

ما كاد ينهي كلامه حتى أضاء الكهف برق شديد أعقبه قصف رعد وقع فوق رأسيهما مباشرة فبدا كأن عملاقاً في الخارج يدحرج صخراً ضخماً على جانبي التل.

صاحت مستغربة: «رعد في آيار».

ـ سي.. كانت الحرارة مرتفعة بالنسبة لهذا الوقت من السنة.. ألم تلاحظي كم كان الطقس حاراً ورطباً بعد ظهر اليوم؟ أم تراك كنت مشغولة في التقاط زهورك البرية؟ لماذا لم تنتظريني؟ كنت سأساعدك في التقاطها.

ومضت عيناه بالسخرية.. فأجابت: «كنت نائماً».

نظر إليها وكأنه يعرف أنها وبرنابي كانا يتحدثان عنه.

قال: «استيقظت عندما كنت وبرنابي تتحدثان.. كان حديثكما طويلاً».

ـ أقال لك إنني ذهبت لألتقط الأزهار؟

ـ أجل، وعندما لم أرى «دليلاً على عودتك، قررت اللحاق بك.. ناديتك عدة مرات، ولكنك لم تسمعيني بسبب خرير المياه ولأنك لم

تلتفتي إلى الوراء مرة واحدة.. والآن، هلاّ خلعت قميصك لأساعدك على ارتداء الكنزة.

قالت بإصرار: «أرجوك.. أنظر إلى الناحية الأخرى.. سأتدبر أمري جيداً».

ـ لا.. لن تتمكني.

قال بحدة عندما شهقت من الألم بسبب تحريكها ذراعها.

ـ كلمك تحريك ذراعك.. ماذا فعلت بها؟

حاولت رفع ذراعها ثانية فانتفضت ألماً:

ـ عندما انزلقت اصطدم مرفقي بصخرة.. أرجو ألا يكون مكسوراً.

لم تكسر قط طرفاً من أطرافها ولم يحدث أن أصيبت بضرر. أما الخدوش البسيطة، والكدمات التي عانت منها في طفولتها فكانت ليوني تعالجها لم عندما التحقت بمدرسة داخلية في انكلترا تلقت العناية على يد ممرضة المدرسة.

أمسك أندريا يدها.. تفحصت أصابعه الطويلة القاسية لحم مرفقها الرقيق، ثم عضلات ساعدها.. فانتشر الألم في الذراع وصاحت. فارتفعت عيناه إليها متسائلاً:

ـ أتؤلمك هنا؟

شهقت: «أجل».

سأل:

ـ أيمكنك الاستغناء عن قميصك؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنني أريد تمزيقها لأصنع منها ضمادة لذراعك.

همست وهي تبذل جهدها للحفاظ على هدوئها: «لا هي غير مهمة».

لم تكن قادرة على رفع بصرها إلى أبعد من نحره الصارم إذ كانت خفقات قلبها الراعدة، تدوي في أذنيها بصوت أعلى من دوي الرعد

المتردد صداه في التلال. شعرت بوجنتيها تشتعلان فسألت بصوت ملؤه الصدمة:

ـ أتظن أن ذراعي مكسورة؟

ـ لا.. لا أحس بعظمة خارجة عن مكانها.. ولكن ربما هناك التواء خفيف في إحدى عظمتي الساعد.

ـ وما هما هاتان العظمتان؟

ـ إنهما عظمتان ما بين المرفق واليد.

ـ وكيف تعرف ذلك؟

ـ درست علم التشريح مرة.

ـ درست لتكون طبيباً؟

ولكنها لا تظنه طبيباً.

ردّ ببرود: «لا، بل درست لأكون فناناً».

دس الضمادة بين خصرها وذراعها المضمدة، وسأل:

ـ أتشعرين بالراحة هكذا؟

كانت أنفاسها مقطوعة إلى درجة لم تستطع معها الرد إلا بهزة رأس. مال أندريا إلى الأمام ليربط نهايات القماش كتعليقة حول عنقها.

عندما عقد الضمادة ارتد إلى الوراء، وهو جاثم على ركبتيه. وشاهدت يده السمراء الدكناء تمتد لتسوي الضمادة جيداً. فسرت فيها أحاسيس مضطربة وأحست بشوق إلى أن يلمسها لا ببرود كممرض أو طبيب بل بشغف وحب.

رفعت رأسها بتهور تنظر إليه مباشرة مع أنها تعلم أن ما تشعر به مسطور في عينيها. كانت عيناه بمستوى عينيها. رأت شيئاً كالدهشة تومض فيهما قبل أن تصبحا قاتمتين خطرتين مفترستين.

مرت لحظات من الشوق القاطع للأنفاس.. ومض البرق وقصف الرعد ثانية في التلال فزاد من حدة التوتر. ثم.. تحرك أندريا بحدة.. فخلع كنزته، ودسها بخشونة فوق رأس دنيس.. حتى كاد الصوف

بكشط وجهها. أشعرتها قسوته بالإحباط والحيرة فدس يدها آلياً في الكم، وشدّ لها الكنزة فوق الذراع المصابة.

تسثر جسمها من جديد مع أن الصوف وخز بشرتها الرقيقة، إلا أن جسمها البارد الرطب استقبل دفء الصوف الذي حصل عليه..

سألها بفظاظة: «لماذا حاولت الوصول إلى الضفة الأخرى؟»

- فكرت أنني إن تسلقت ذلك الطريق أستطيع الوصول إلى الجسر، ثم السير على درب الغنم إلى الوادي.

قال ساخراً: «إذن، كنت ستهربين مجدداً.. لماذا؟»

- أنا.. كنت.. خائفة. قال برنابي إن وجودي هنا خطر على أهل القرية والوادي، فقررت الرحيل.

- لماذا لم تسلكي درب الغنم أصلاً؟

- منعني برنابي. قال إنك لن تكون راضياً إن تركتني أعود أثناء نومك.. قال إن عليّ الانتظار حتى تستفيق.. لماذا لا تريد أن أبتعد أندريا؟

تفرس في وجهها مقطباً للحظات، ثم مال إلى الأمام، وبداه ترفعان شعرها المبلل من باقة الكنزة المستديرة.. اشتعلت مرة أخرى أحاسيسها ثم سمعته يشتم بصوت هامس قبل أن تشعر بيده تلتف حول عنقها. رأته ينحني معانقاً، فأغمضت عينيها بانتصار مثير.. الانتقام وشيك.

همس بصوت مرتعش:

- لا بد أنني سأفقد عقلي.

مررت ذراعها السليمة حول عنقه ثم سرعان ما أصبحت بين يديه في عناق شغوف تركها بلا حول أو قوة..

ومض البرق، وقصف الرعد. ولكن دنيس لم تره أو تسمعه.. نسيت ألم ذراعها، نسيت الدالع وراء دهونها له إلى هذا العناق، لأن قوة احتضانه لها أيقظت فيها شوقاً مماثلاً.

أحست أناملها برطوبة شعره الحريري وبنعومة بشرة عنقه الحارة

المخملية استكانت إليه استكانة أبعد من الألم وأبعد من التفكير المثقل واجتاحها إحساس متكامل.. فتأوهت، ليس من الألم، بل من السعادة. راح شوقها ينمو ببطء كشوقه، شوق يدفعها إلى الدخول في حب مشبوب.

فجأة، أبعدها عنه بيدين قاسيتين، ثم دفعها وكأنه ثم بعد يطيق بقاءها بين ذراعيه. نهض ليتقدم إلى مدخل الكهف، حيث أسند كتفه إلى صخوره ثم مرر أصابع يده في شعره المشعث، وهز رأسه بحدة.. وكأنما يريد أن يحرّر نفسه مما تبقى من مشاعر.. ثم مد يده إلى جيب سرواله الجينز ليخرج سيكارة.

كان الإحساس بأنها منبوذة أقوى من ليلة أمس، لأنها في هذه المرة تجاوبت معه، وحاولت عرض نفسها عليه كما أنها ما تزال مقطوعة الأنفاس داثخة بسبب عناقه. تمكنت من الوقوف لتلحق به.. كان خارج الكهف، عالم أخضر مبتل.. لقد توقف المطر ولكن المياه ما زالت تصبّ في سواقي صغيرة لتشكل مستنقعات كبيرة فوق الأرض.. كانت كل ورقة فوق كل شجرة وكل عشب، كل سرخس مروحي ترتجف تحت ثقل قطرات المياه القابعة فوقها.

سألت دنيس مترددة: «ما بك أندريا؟»

تصاعد دخان سيكارته بكسل في الهواء الساكن الرطب، فدغدغ أنفها، التفت إليها فإذا ملء نظرته عداء جليدي جعلها تنتفض وتصمت. ولكنها صاحت:

- ما الأمر؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

قال بوقاحة: لا أحب أن يستغلني أحد كبديل.

- بديل؟ لا أفهم.

- ألا تفهمين؟ سأشرح لك إذن.. حصلت الآن لتوك على ما تريدين أليس كذلك؟

نظرت إليه بخيبة أمل وخوف.. هل عرف دافعها الأصلي؟

همست: «ماذا تعني؟»

ـ أردت التدلل والحصول على المزاء لأنك أصبت بأذى..

تفخ الدخان بصوت وحشي وأدار ظهره إليها ليضيف بغظاظة:

ـ لكن الأمر خرج من يدك.. أترين، أنا لم أحسب حساب أن أكون بديلاً عن خوان دوريناالدا وعن ليوني.

بينما كان معنى كلماته يخترق ضباب الارتباك الذي غلف تفكيرها، أحست بالغضب يشتعل ليبدد ما تبقى من ضباب.. وقالت شاهقة:

ـ أتعتقد أنني نخيلتك خوان؟ أتظنني تركتك تعانقني لهذا السبب؟ آه يا لغبائك!

رد بلؤم: «وهل تتوقعين من عضو في عصابة ما غير أفكار غبية ملؤها الجهل؟»

رمى سيكارته في بقعة ماء ثم استدار إليها ليواجهها وعيناه تومضان بعداء شديد.

ـ ألديك تفسير آخر يفسّر سبب تبدل تصرفاتك؟ أتعلمين.. لست واثقاً إن كنت المرأة ذاتها فالبارحة كنت أحتضن فتاة عذراء، نقية كالثلج، جامدة.. أما الآن.. واو! يا له من فرق! خلتك للحظة تريدين مني أن أكمل ما بفعله العشاق.. هنا، في ظلمة هذا الكهف البدائي.. لذا لا أستطيع سوى الافتراض بأنك فجأة، أصبحت تتمنين لو بقيت في «بيلباو» لتتزوجي بـ دوريناالدا لئلا يفوتك شيء من مباهج الزواج.

صاحت به: «لم أشعر بالشوق إلى خوان بل الواقع أنني هربت لأنني لم أطق التفكير فيه زوجاً له حقوق عليّ».

لعقت شفتيها الجافتين فجأة وقد أدركت أنها أقرّت له بما لم تقرّه لنفسها، وبما لم تكن تعرف أنه موجود في قرارة نفسها.

همست مرتجفة: «إنه يفرقني».

التوى فمه بشكل بشع: «ولماذا تتركينني أعانقك؟ المجرد التمرد؟ أيمتحك عناق عابر على يد رجل انهمته بحياة الطيش وبمعرفته بالنساء

الحقيرات، إثارة منحرفة؟»

سحب نفساً مرتجفاً، ثم ارتدّ عنها مجدداً يمرر يده في شعره:

ـ لقد اقتربت كثيراً من هذا.. أتدركين؟ عجباً!

ـ لا.. لا.. ذلك لم يكن السبب..

وصمتت، لأنها كانت تصبح به، ضاربة بذلك إطار الأدب الذي تربت عليه عبر السنين ليحميها من مشاعرها الثائرة.

تمتمت بيأس:

ـ آه! لماذا ترغب في إفساد كل شيء؟

التفتَ إليها: «أكان هناك ما أفسدته؟ ديوس، يا إلهي! ستقولين لي الآن إنك وقعت في حبي.. هيا الآن نينا، كوني واقعية، ولتجهي الوقائع. لقد رغبت في رجل، وصدف أن كنت أنا هذا الرجل».

كراك!..

لم تكن تدرك أنها قادرة على الصفع بهذه القوة حتى رأت آثار أصابعها على خده النحيل.

صاحت: «توقف.. توقف عن هذا! توقف عن قول مثل هذه الأشياء الفظيعة! أنا لست هكذا!»

ـ لا؟ إذن كيف أنت؟ هل بدأت تعرفين نفسك؟

لمس خده بأطراف أصابعه أما وميض الغضب في عينيه فحذرها بأنه عفا عنها هذه المرة.

ـ ما دمت غير سعيدة بالتراجع، فما تفسيرك لإهوائك المتعمد لي؟

بدأت تنكر: «أنا لم...»

وتوقفت.. لقد ارتدت خطة انتقامها وبالاً عليها.. ظنت أنها قادرة على جعله يرغب فيها، ونجحت.. لكن ما كان الثمن؟ لم تحسب حساباً بأنه قد يجعلها ترغب فيه.. كيف لها أن تشرح له تصرفها معه؟

ـ صدقني أندريا.. أنت.. أنت أول رجل أتركه يعانقني بهذه الطريقة. لكن.. ولكن لم يكن السبب فقط رغبتي في رجل. بل

لأنني.. آوه.. أرجوك.. أرجوك أصغ إليّ!.. فأنا لم أشعر قط نحو أي رجل من قبل ما أشعر به نحوك وأنا..

صدها بهمسة حادة:

- اخرسي..! أنت مشوشة الفكر، مخبولة، لأنك بعيدة عن حياتك العادية.. أنت لا تعرفين ما تقولين..

ردت بإصرار شرس:

- بلى.. أعرف.. أعرف.. أنت المجنون لا أنا، ألم تقل ذلك بنفسك.

- لكنني على الأقل أعرف ماذا دهاني.. عشت هنا شهرين كالناسك. ثم جئت أنت، ورميت نفسك علي، مرفرفة أهدابك الطويلة.. فهل تستغربين نفاذي لصوابي؟

تحرك بعنف مكبوت ثم تجاوزها متوجهاً إلى داخل الكهف، وقال:

- فلنخرج من هنا حتى نعود إلى «الايتشولاك». سيتساءل برنابي الآن عما أصابنا.

تساءلت دنيس وهي تصعد التل: وما أصابنا؟ كانت المياه في الجدول قد ارتفعت، وأخذ حذاؤها يخب مع كل خطوة فيما ألم ذراعها مستمرّ في الوخز.. وكان أندريا خلفها ولكنه لم يكلمها، ومع أنها انزلقت فوق العشب الرطب أكثر من مرة، لم يعرض مساعدتها، وكأنه يعرف أن من الخطر على كليهما أن يلمسها مرة أخرى.

ما حدث في الكهف هو بالتحديد ما خشيت منه. فقد هبت المشاعر بينهما فجأة كما تهب العاصفة الرعدية.. لقد انفجر إحساس الواحد منهما بالآخر انفجاراً صارخاً.

لمجرد التمرد؟ أثارت سخريته أحاسيسها. فراحت تنظر إلى نفسها كما ينظر إليها، فتاة ثرية، أنانية، تحب الترف، متخمة من الإعجاب مشمة ممن يرافقها في المحيط الذي تدور فيه نساء عديدات يمتلكن هذه الصفات.. ولكنها ليست مثلهن ولا تريد أن تكون.. فهن يقرفنها.

ما إن وصلا إلى «الايتشولاك» حتى صفت السماء وارتفعت الغيوم الرقيقة كغلالة شفافة لتكشف عن الجبال التي كانت صخورها تلمع تحت أشعة الشمس.. وبدأت العصافير تزقزق، وصدح خرير الماء في كل حدب وصوب.

كان برنابي يخرج من الكوخ الذي اختبأ فيه أثناء هطول المطر الشديد.. عندما شاهدهما بدت الراحة على وجهه في البداية، ثم اللهفة.. سأل أندريا بلغة الباسك مشيراً بطرف غليونه إلى دنيس.. فأجابه أندريا باقتضاب ودخل الكوخ.

قال برنابي بلهجته اللطيفة:

- آسف لما أصابك سنيوريتا.. أتستطيعين ركوب الخيل؟

- أجل.. أستطيع.

- إذن اعتلي صهوة أحد البغلين أثناء نزولنا إلى الوادي.

ردت شاكرة: «أشكرك».

بدت وكأنها فقدت كل طاقتها وكانت مسرورة لأنها لن تضطر إلى السير مجدداً حتى «إيسكر أونا» بحذائها المبلل، وبجواربها الممزقة، وبثورتها المبللة.. واشتاقت إلى حمام ساخن، وإلى ما يريح الألم المستمر في ذراعها، ثم الذهاب إلى السرير لتنسى مشاكلها بالنوم.

خرج أندريا حاملاً إبريق حليب ساخن، صب منه كوباً وأعطاها إياه آمراً:

- اشربيه، سيدفئك، ويريح أعصابك قليلاً.

ردت بسخرية:

- إنه ترياقكم لكل الأمراض؟ لا.. لا أريده.

- أصمتي، واشربيه.. فقد تنهارين من جديد إن لم تتناولي شيئاً يقويك.. الألم شديد، هه؟

- أجل.. أتمنى لو أتناول شيئاً من الأسبرين.

- ليس لدينا هنا أسبرين.. هل لديك بعض الأقراص بين أغراضك

«النسائية» التي في حقيبة الكتف؟.

ولوى فمه ساخراً. فصاحت تستفقدها لأول مرة:

- حقيبتي! أين هي؟ ماذا فعلت بها؟

رد بهز كتفيه: «أظنها في الكوخ حيث تركتها».

- لا.. لقد أخذتها معي.

- لم تكن معك عندما رفعتك من الماء.

تأوهت:

- إذن، لقد وقعت عندما سقطت.

ورفعت يدها إلى رأسها تحس بوهن شديد.

قال مقترحاً: «ربما جرفها السيل إلى «ريوتيف» أو ربما علقت وراء صخرة في مكان ما وسط الجدول».

- أيمكننا الرجوع للتفتيش عنها؟

اقترحت هذا الاقتراح رغم علمها بأن لا طاقة لديها للعودة والتفتيش.

قال لها بهدوء: «ليس الآن. الأهم هو إعادتك إلى الوادي، ثم اصطحابك إلى طبيب».

- ولكنني لن أستطيع الذهاب إلى أي مكان بلا حقيبتي.. ففيها مالي وبطاقات اعتمادي ودفتر الشيكات.

رد بقسوة: «قلت لك ألا تحمليها معك».

ردت بغضب: «آه!.. إنها غلطتك.. لولا إصرارك على بقائي هنا هذا الصباح لما حدث ما حدث».

رد بصوت خفيض، والغضب يعتمر في عينيه، وشفتاه ترقان سخطاً:

- حسن جداً.. ألقي اللوم عليّ.. ولكنني لم أطلب إليك المجيء إلى الوادي. لذلك، فالقصة تعود إلى أبعد من هذا الصباح.. تعود إلى الأمس عندما هربت لأنك لا تريدين الزواج بدوريناللدا.. القصة تبدأ

هكذا: لولا فرارك..

أعطاها كوب الحليب مجدداً، وقال بمكر:

- اشربي هذا.. اشربيه قبل أن أضطر أنا إلى إجبارك، فيصاب برنابي بالصدمة لأنه لا يحب إجبار امرأة على شيء.

- لم أرَ قط رجلاً بلا رحمة وبلا قلب مثلك.

رد ساخراً: «وهل أنا أقسى قلباً من ديمتري بيرافتا؟»

سلبها الألم والضعف الرغبة في المقاومة.. تدفق السائل الأبيض الساخن إلى فمها، وما إن ابتلعته حتى أحست بدفئه يسري في جسمها. كانت مسرورة لأنها احتسته.

قال بإصرار: «اشربي المزيد، فلربما خفف من عنادك وجعلك أسهل انقياداً.. هيا.. اشربي سيساعدك».

ما إن أنهت الكوب حتى حاولت الوقوف للسير نحو البغل الذي قدمه برنابي لها.. أحست بأن الأرض تميد بها. وسمعت أندريا يضحك، فاستدارت لتحتج على سخريته منها، ولكنها ترنحت فأسرع يلتقطها بين ذراعيه، وحملها إلى البغل ليضعها على ظهره.. كانت عيناه تبرقان من الضحك وهو ينظر إليها:

- أنت دائخة نوعاً.. امسكي حبل البغل جيداً، ولا تتركيه.. فقد تسقطين إن تركته.

هكذا بدأت رحلة العودة بغشاء ضبابي يلفها.. كان رأسها ثقيلاً جداً.. وعندما رفعته بجهد رأت الأشجار، الصخور، وقمم الجبال البعيدة، والسماء الزرقاء الواسعة، تلوح من حولها بطريقة مخيفة، فكان أن شعرت بالبهجة لأنها ردّت بصرها إلى الأسفل.

لم يبق حولها حقيقياً إلا اللجام الذي تمسكت به بشكل غريزي، لئلا تقع عن البغل.. كما قال لها أندريا.. تركت نظرتها تتحول بحذر إلى جانبيها.. ها هو هنا.. إلى جانبها، يقود البغل. بدأ شعره الأسود يستعيد حركته وهو يجف تحت أشعة الشمس.

لقد لامست هذا الشعر وأحست بنعومته الحريرية تحت أصابعها وكم تحب أن تلمسه ثانية.. ولكنه لن يرضى أن تلمسه إذ سيقول إنها تفعل ما تفعل لمجرد التمرد.. على أي حال، لن تستطيع أن تلمسه، فليس لديها الآن يد حرة، بل عليها التمسك بالرسن لئلا تقع، ولقد وقعت بما فيه الكفاية اليوم. لقد وقعت في الجدول وأصيبت ذراعها وربما وقعت أيضاً في حب رجل العصابات الجاهل الذي لا يطيقها.. أليس حظها عاثراً؟

كانت ترى بشكل ضبابي جدران «إيسكرأونا» وترى ظلال الأشجار الخضراء تمتد في الحقول المحيطة بالمنزل، وهم يقطعون أرض الوادي.. ورأت صبياً في الثالثة عشرة من عمره يجلس على عتبات الدار. حالما شاهدهم قفز الصبي وراح يكلم أندريا بلهفة ثم أعطاه ورقة مطوية قرأها أندريا ثم دسها في جيب سترته وبعد ذلك تكلم بهدوء مع برنابي، الذي أجاب مقطباً وعلى وجهه اللهفة.. تجادلا قليلاً، ثم هز برنابي كتفيه موافقاً على شيء ما.

استدار أندريا إلى دنيس التي ما تزال جالسة على ظهر البغل منتظرة مساعدة أحد حتى تنزل لأنها لا تقوى على الوقوف على ساقيها بدون مساعدة أحد.

قال بغظاظة: سأصحبك إلى طبيب الآن. سنذهب في سيارتك.. أتوافقين أن أقودها نيابة عنك؟

عدم الموافقة مضيعة للوقت، فهي تعرف وهو يعرف أن ذراعها بحاجة إلى عناية طبية.. لقد فقدت استقلاليتها عندما تأذت ذراعها وفقدت حريتها. وهي الآن تعتمد على إرادته الطيبة، فمن الغباء إذن معارضته لذا لم تجادل، بل هزت رأسها موافقة.

- بونيو.. ابقي على البغل حتى يصحبك برنابي إلى مزرعته حيث سيارتك، وسألحق بكما بعد دقائق مع حقيبة ملابسك.

تركها ودخل إلى المنزل مقفلاً الباب وراءه.

في أثناء التوجه إلى مزرعة برنابي تسللت الشمس إلى ما وراء الجبل، وامتدت الظلال. فكرت دنيس في أن ما تقوله الأغنية القديمة التي طالما غنتها لبوتي لها، تحققت: إنها كالحمامة البيضاء التي طارت إلى أعالي البيرينيه، وبدلاً من إيجاد السعادة وجدت الألم!

كانت العصافير في الغابة تصدح بأغنيات المساء، وقطرات المطر ما تزال تتقطر من الأغصان والأوراق.. حينما وصلوا إلى المكان المنشود قاد برنابي البغل إلى طريق ترابية تفضي إلى مزرعة ذات سقف قرميدي معتق اللون.

خرجت من باب المنزل امرأة في الثلاثين من عمرها، وجهها طويل شاحب، وعيناها سوداوان براقتان.. كانت تحمل على خصرها طفلاً صغيراً ستة أشهر. تكلمت بحدة مع الصبي الذي رافقهما والذي نظنه دنيس ابن برنابي، ثم رفعت بصرها بفضول نحو دنيس، بعداء بارد.. وسألت، زوجها بالإسبانية:

- هل تلقى أندريا رسالتي؟

- نعم.

رفعت المرأة رأسها نحو دنيس:

- لماذا جلبتها معك إذن؟

- لقد كسرت ذراعها لذا سيصحبها إلى الطبيب.. سيذهبان بسيارتها.

بدت الراحة على المرأة.. وتمتمت:

- شكراً لله! أنا مسرورة لأنه سيبعدها عن هنا. إنه مجنون، ابن عمك هذا.. ما كان عليه السماح لها بالبقاء أصلاً.

تقدمت نحو البغل تسأل دنيس:

- هل قالا لك؟ هل أخبراك بما حدث؟

هزت دنيس رأسها نفياً.. فأكملت المرأة:

- إذن، سأقول لك.. ربما تفعلين شيئاً بشأن الأمر. والدك مؤمن

بأنك مخطوفة على يد عصابة إرهابية. وقد طلب من الحرس المدني البحث عنك. تعرفين ما يعني هذا.. سيحضرون إلى هنا قريباً ويطرحون الأسئلة التي لا تنتهي.. من المهم سنيوريتا أن تتصلي بأبيك في أسرع وقت ممكن لتقولي له إنك سالمة وغير مخطوفة.

ردت دنيس تؤكد لها: «طبعاً سأفعل».

- بونيو.

لم تبتسم المرأة، بل نظرت إليها مجدداً بعداء قبل أن ترتدّ على عقبيها قاصدة المنزل الذي صفقت بابه وراءها.. قالت دنيس متذمرة لبرنابي وهو يساعدها في الترجل عن البغل:

- لماذا لا تحبني؟ لماذا تكرهونني وتكرهون أبي؟.

تمتم: «لا أستطيع ذكر السبب سنيوريتا. تعالي واجلسي على هذا المقعد.. سيصل أندريا في وقت قريب.. سأذهب لأحضر لك شيئاً تأكلينه».

دخل هو أيضاً إلى المنزل وأغلق الباب خلفه. بعد فترة خرج حاملاً كوب حليب وطبقاً فيه قطعتي خبز عليهما القليل من الجبن..

تناولت دنيس الطعام منه شاكرة.

غابت الشمس.. وأصبح شكل الجبال أسود قرمزياً أمام السماء الشاحبة، الموشاة بسحب حمراء قاتمة بينها يقبع هلال فضي رائع.. كانت أكاليل من ضباب أزرق رمادي تطوف حول الحقول عندما أطل أندريا أخيراً حاملاً على إحدى كتفيه حقيبة منتفخة وعلى الأخرى حقيبة دنيس.. فقالت له بلهفة:

- أندريا.. يجب أن أصل إلى الهاتف. عليّ الاتصال بأبي، لأقول له إنني غير مخطوفة.

قال بيرود وهو ينزل الحقيبتين:

- لقد تكلمت مع خواتيتا إذن، هه؟ سأذهب لأحضر السيارة.

اختفى وراء المنزل ثم عاد بعد دقائق يرافقه هدير محرك سيارتها

التي أوقفها أندريا أمامها. خرج منها ووضع حقيبتها وحقيبة في الصندوق، ثم طلب منها الجلوس في المقعد الأمامي قرب مقعد السائق. بعد ذلك ظهر برنابي الذي صافح أندريا وودّع دنيس ثم عاد إلى منزله.

تركا القرية ورادعها. أخذت الطريق تتلوى عبر التلال المظلمة المتقاطعة.. وتلاشى كل نور من السماء ثم ظهرت النجوم، مرسلة رسائلها نحو الأرض.

قاد أندريا بمهارة وسرعة ولكنه لم يخاطر في المنعطفات الخطيرة، وسرعان ما وصلا إلى طريق معبدة انطلق منها ناحية الجنوب. فسألته دنيس:

- إلى أين ستأخذني؟

- إلى سان سبستيان.. سنتجه غرباً حالما نصل إلى «باميلونا».

- أليس هناك طبيب أو هاتف في مكان أقرب من ذلك؟

رد باقتضاب: «ربما».

تسللت الريبة إلى تفكيرها مجدداً. فها هي جالسة في سيارتها وكأنها محبوسة أو عالقة في فخ.

قالت تتهمه وقد اجتاحها ذعر مفاجئ:

- لا أصدق أنك تصحبني إلى طبيب. قلت هذا فقط لأوافق على مرافقتك بالسيارة، خشية أن يطرح الحرس أسئلة عني.. وإن وجدوني في الوادي معك ظنوا أنك خاطفي.

رد ببرود:

- أنت مخطئة بخصوص الطبيب.. لأنني سأصطحبك إليه في سان سبستيان.. ولكنك محقة، إلى حد ما بالنسبة للحرس إذ يسهل على برنابي وزوجته الإجابة بصدق، والقول بأنك لست في الوادي إن لم تكوني هناك.. أنت من قال إنك لا تريدين أن يجدك أحد أتذكرين؟

أشعل عود ثقاب قرّبت إليه بطرف عينها ثم تمتمت:

- سيكون أسهل على الجميع إن اتصلت بأبي لأخبره بأنني غير

مخطوفة.

ـ بإمكانك الاتصال به في سان سبستيان.

ـ ولكن، ألن تتوقف قبل أن تصل إلى هناك؟

ـ لماذا؟

ـ لتعبئة خزان الوقود فلا شك أنه يكاد يفرغ كان شبه فارغ عندما وصلت بالأمس إلى إيلبار».

قال لها: «ملأته بالأمس».

ـ أين؟ في إيلبار؟»

ـ لا.. في طريقي إلى بامبلونا.

صاحت: «أتعني أنك ذهبت إلى بامبلونا بهذه السيارة ليلة أمس؟»

ـ سي.. اقترضتها.

ـ لا يحق لك ذلك أبداً. كان عليك استئذاني أولاً.

ـ أعرف.. ولكن فكرة اقتراضها لم تخطر ببالي إلا بعد فوات الأوان.

ـ إذن، لهذا السبب غبت طوال الليل.. لماذا ذهبت إلى هناك؟

ـ قلت لك إنني كنت أكسب رزقي.

كان لرده المرح القدرة على إسكاتها.. فنظرت من النافذة إلى السماء المليئة بالنجوم.. بلدة بامبلونا مشهورة باحتفال اسمه «فيستا دوسان فيرمان» حيث الرجال والأولاد يختبرون قوتهم وشجاعتهم بالركض مع الثيران التي تسير في الشوارع متجهة إلى حلبة المصارعة. ولكن للبلدة كذلك سمعتها كمركز لحركة الاستقلال الباسكية.

لماذا ذهب أندريا إلى هناك؟ تصاعدت شكوكها القديمة مجدداً لتعذبها.. هل ذهب ليحصل على تعليمات لما ينوي القيام به في سان سبستيان؟ هل استخدم سيارتها ليتنقل بسرعة في ليلة مظلمة في مهمة مظلمة؟ وها هو الآن يستغل سيارتها لتوصله إلى حيث يريد؟ لا يمكنها القيام بشيء لإيقافه.. فلقد جرفها مدّ تصميمه الشرس.

عندما وصلا إلى تقاطع طريق، انعطف يميناً. لم تكن الجبال قريبة وكانت الطريق أكثر استقامة.

هل خطفها أندريا؟ حركت دنيس رأسها نفياً من جانب إلى آخر. الخطف يعني إجبار شخص على البقاء معك بالقوة. لم يخطفها أندريا ولم يجبرها على شيء بل كل ما قامت به كان بمحض إرادتها.. الآن، هي مصابة ولا تستطيع قيادة السيارة.. فقدت مالها ولا تستطيع السفر أو الإقامة في فندق.. ولأنها لم تترك رسالة لأبيها تقول له فيها إنها رحلت بمحض إرادتها، سيتعرض أناس كبرنابي وزوجته إلى استجواب الحرس.

قالت هامسة، والدموع تنهمر على وجنتيها:

ـ لقد أفسدت كل شيء.. آه أندريا، ماذا سأفعل؟

التفتت نحوه تسند رأسها إلى ذراعه وتبكي على سترته الجلدية.. سمعته يلعن، ثم أوقف السيارة، وأطفأ المحرك والأنوار، ثم احتواها بين ذراعيه. بكت بحرارة وقوة مع أنها لا تعرف بالضبط سبب بكائها. ولكنها تعتقد أن سبب بكائها الخيبة والتوتر والألم، واللهفة مع التعب الخالص.

هدأ تدريجياً نحيبها وظلت جامدة بلا حراك بين ذراعيه، مستمتعة بأصابعه التي تمسد شعرها، وتداعب خدها مواسية..

تمتمت: «أنت تعتبرني فتاة مزعجة مدللة تبكي كلما سارت الأمور في غير مسارها».

رد بهدوء: «نعم، ربما.. ولكنني أعرف كذلك أنك متألمة، وضائعة، ومرتبكة وعاجزة عن اتخاذ قرار بشأن المكان الذي تلجئين إليه».

قالت ضاحكة من بين دموعها: «تجعلني أبدو كجرو ضائع».

مازحها بلطف: «بل قولي كهريرة صغيرة لأن لك مخالب قوية».

وضع أصابعه تحت ذقنها، ورفع رأسها إلى فوق.. أما أصابع اليد

عندي حتى تتحسن ذراعك وتتمكني من قيادة سيارتك مجدداً.. وحتى ذلك الوقت سيكون والدك قد فهم الرسالة..».

ـ لكن..

ـ لديك بديل؟ أهناك مكان آخر تستطيعين اللجوء إليه؟ ألديك صديقة تقدم لك المنامة والطعام بدون أن تخبر أباك بمكان وجودك؟

ـ لا.. ليس لدي.. ليس لدي أحد بعد رحيل ليوني.. لكن، لماذا أندريا؟

ـ لماذا.. ماذا؟

ـ لماذا تعرض عليّ الملجأ مرة أخرى؟ أعرف أنك قبلت بوجودي لأن ليوني كانت ستستقبلني، إنما هذا السبب انتفى حالياً لأننا غادرنا منزلها.

انتظرت رده بقلب خافق. ربما سيقول لها الآن أن السبب هو إنجذابه إليها بمقدار انجذابها إليه. ربما سيقول لها إن السبب هو رغبته في العيش معها لأنه يحبها.

ولكنه لم يرد فوراً، بل جلس ينظر من النافذة وهو يدخن. أخيراً مال إلى الأمام يسحب المنفضة ويطفىء فيها سيكارته..

قال: «ليس هناك سبب لما أفعل».

أدار محرك السيارة، وأضاء المصابيح الأمامية، ونظر إليها:

ـ لا أستطيع إلا أن أقول إنني تعلقت بقوة بهرة صغيرة شاردة ذات فراء ذهبي وعينين زرقاوين قاتمتين وإنني.. لا أرغب حتى الآن في فراقها.. والآن، لماذا لا تحتبين فوق المقعد وتنامي.. أمامنا طريق طويل، يا هرتي!

لم يكن رده ذلك الرد الدرامي الرومانسي الذي أملته، ولكنه أفضل من الصد.. فهو على الأقل لم ينكر انجذابه إليها.. استدارت فوق مقعدها جانبياً، وأرخت رأسها على ظهر المقعد. إن اتصلت بوالدها فلن تذكر له مكان إقامتها وكل ما ستقوله له إنها غير مخطوفة ثم تطلب

الأخرى، فراحت تمسح بظهره ما تبقى من دموع في عينيها وحولهما.. جعلتها المناعة الحنون تلتصق به وتشد كيانها إلى صدره.

أحست بمشاعر عطشى تقفز في داخلها.. أصبحت غير مهتمة بما فعل أو بما سيفعل.. وغير مهتمة بالفروقات التي تفصلهما عن بعضهما بعض كذلك الشق في الجبل.. بإمكانها مد الجسور فوق الشق، بالحب.. بإمكانها أن تحبه.. وهي تحبه.. وستحبه.. بشراسة وتملك.. لهذا كانت تلتصق به بهذه الطريقة المستسلمة.. ستبقى معه إلى الأبد.. ستعيش معه إلى ما لا نهاية.

توقف المناق العاصف وتوقفت معه أعاصير دنيس عن الطيران وعادت إلى واقع الظلمة داخل السيارة، وإلى رائحة التبغ اللاذعة، وإلى حميمية جلد سترة أندريا.

همست بصوت مرتجف وقد ابتعدت عنه:

ـ لن أتمكن أبداً بعد هذا كله من التظاهر بأنك ليوني.

ـ إذن.. لا تتظاهري، لأنني لست البديل عنها أو عن أي شخص آخر، فما أفعله أفعله لنفسي. إنك تبدين حتى بعد البكاء جميلة.. وعيناك تبدوان كزهرتين بللهما المطر.

همست: «لم يسبق أن وصف أحد عينيّ بهذه الطريقة؟».

سأل ساخراً: «ولا حتى خوان؟».

ـ أشك في أن يعرف ما هي زهور الجبل.. لكن ماذا سأفعل؟ لم يحن الوقت على العودة إلى بيلباو. فالزفاف مقدر غداً فإن عدتُ الليلة اعتقد أبي وخالتي وخوان، أنني عدت لأنني أريد الزواج وستنزل على رأسي الضغوطات كالصاعقة.

ـ إذن، لا تعودي.

ـ لكن إلى أين أذهب؟

قال بهدوء: «رافقيني إلى مرسمي وأقيمي فيه معي كما أقمت معي في «إيسكرأونا». الفارق الوحيد سيكون المكان فقط.. لك أن تمكثي

منه إيقاف عمليات البحث عنها. ما أروع أن تعرف أن هناك مكاناً تستطيع الإقامة فيه بضعة أيام أو أسابيع عديدة أو طوال عمرها، هذا إن حققت حلمها وجعلته يحبها.

انسلت لا إرادياً في نوم عميق، لم تستيقظ منه إلا عندما مرت السيارة ببولفار تحيط به الأشجار، فجلست تلك مؤخرة عنقها.

ـ أهذه هي سان سيبستيان؟

ـ أجل.. هل زرتها سابقاً؟

ـ لا أذكر. كان والدي يملك منزلاً صيفياً في مكان قريب من هنا.. وكانت أمي تقيم فيه كثيراً معي ومع ليوني.. لكنه باعه.. ولا أدري السبب. يبدو أن الريح شديدة الليلة.

ـ على الأرجح هناك عاصفة في الخليج.

وجّه السيارة إلى شارع عريض يحده في جانب صف من الفنادق المشعة وفي الجانب الآخر جدار حجري يطل على البحر.. وخلف الجدار تقبع مياه الخليج الشهير «بيكاي» الذي يهدر ويصخب.. كانت نوافير من الرذاذ تقفز فوق الجدار حيناً أو تنسكب فوق الطريق حيناً آخر.

ـ سنذهب إلى الطبيب أولاً.

ـ لكن، ألبس الوقت متأخراً؟ للأطباء ساعات معينة للزيارة.

ـ أما هذا الطبيب فسيستقبلنا.

ـ ما اسمه؟

ـ اسمها: فاليا سيموزا.

ـ كم عمرها؟

أحست بالغيرة تجتاحها كالحمى، تنظر أندريا إليها دهشاً.

ـ تكبرني بخمس سنوات.

لا شك أن في حياته نساء عديدات، فهو وسيم بطريقة مثيرة، وحوله هالة تجذب النساء إليه بمن فيهن الكبيرات في السن، وقد يكون

متزوجاً. رباه! كيف تفكر في الذهاب معه إلى شقته والبقاء عنده. إنها بلا ريب مسحورة منذ دخل إليها وهي في المطبخ في «إيسكرأونا».

تركا الجادة البحرية وأخذا يصعدان شارعاً متوجهاً إلى أعلى التل.. لم يكن مضاء، لكن من بين ظلال الأشجار المتأرجحة رأت دنيس بيوتاً كبيرة، كل منها يختفي وراء جدار حجري. في منتصف الطريق صعوداً أدخل أندريا السيارة ما بين بوابتين حديدتين مزخرفتين مفتوحتين على وسعهما ثم سلك طريقاً خاصة قصيرة نحو منزل مؤلف من طابق واحد وبهي الطراز.

همست دنيس بإلحاح وهو ينحني ليفتح لها الباب:

ـ ماذا سأقول للطبيبة؟

ـ عمّ؟

ـ عن ذراعي وإصابتها.

ـ الحقيقة. لا تقلقي لن تطرح الكثير من الأسئلة.. ولهذا صحبتك إليها.

ـ لربما عرفتني، كما عرفتني أنت.

ـ عندما تعرفك تتصرف.. هه؟ الآن أخرجي.

فتحت لها الباب امرأة صغيرة الجسم ممتلئة، تضع مبدعة بيضاء فوق فستان أسود.

بادرها أندريا قائلاً:

ـ هل الطبيبة في المنزل روزيتا؟

ـ سي سنيور ميكوري.

كانت ابتسامة المرأة عريضة مرحبة ولكن ما إن رأت دنيس حتى تلاشت ابتسامتها وحلّت محلها الدهشة.

ـ أدخلا.. بورفافور.

دخلا إلى ردهة داخلية عريضة:

ـ توجّه رأساً إلى العيادة سنيور.. ستكون الطبيبة مسرورة برؤيتك.

www.liilas.com

رد ساخراً بدون توجيه الكلام إلى أحد: «عجباً».

ودنا من الباب المفتوح إلى يمينه.

كانت دنيس تشعر بالارتباك لأن حذاءها ما زال مبللاً ولأن جواربها ممزقة وتنورتها مجعدة وشعرها كتلة مبعثرة بجنون أما كنزة أندريا فأكبر من حجمها بدرجات. تبعته دنيس على الأرض المرصوفة بالأبيض والأسود إلى غرفة طويلة واسعة ذات سقف منخفض.

كانت السجادة الحمراء التركية سميكة، تغطي الأرض من الجدار إلى الجدار. في الغرفة مقاعد عاجية عريضة، ومقاعد ذات مسندين موضوعة في الغرفة مع عدة طاولات زجاجية السطح.. وعلى أحد الجدران لوحتان كبيرتان رائعتان تلفتان الأنظار.

كان هناك امرأة متمددة على أحد المقاعد الطويلة.. رفعت بصرها إليهما ثم رمت الورقة التي كانت تقرأها وهبت واقفة وتقدمت نحو أندريا مادّة يديها مرحبة به.

قالت باستغراب: من أين أتيت؟ أين كنت في الشهرين المنصرمين؟

رد ساخراً: «أحيا حياة البساطة، أقطع الحطب وأحلب الأبقار وأطعم الدجاج وأرعى الغنم، وأتواصل مع الطبيعة».

قالت المرأة: «ولهذا تبدو أفضل حالاً».

كانت طويلة وقوية البنية ترتدي تنورة سهرة متعددة الألوان وبلوزة سوداء بسيطة. شعرها الأسود مردود إلى الخلف في عقصة مشدودة. بدا وجهها طويلاً وعيناها عميقتي التجويف حتى تكادان تكونان سوداوين تحت حاجبين مقوسين أما فمها فمنحني بطريقة مرحة، كانت مألوفة لها بشكل غامض.

أردفت: لا تبدو كمن انغمس في ملذات الدنيا؟ ولكن، أكان من الضروري حقاً أن تختفي هكذا؟ قلقت وأنا وخوسيه عليك.. أعرف خير معرفة القوى التي دفعتك إلى الابتعاد.

وصمتت المرأة عندما لاحظت وجود دنيس.. نظرت إليها وكأنها لا

تصدق عينيها وهمست ويدها ترتفع إلى خدها:

ـ ديو ميو.. يا إلهي! بماذا أنت متهمك الآن.. أيها الشيطان الشرير.

التفت أندريا لينظر إلى دنيس، والتوى فمه بسخرية، ثم قال ببرود:

ـ هذه دنيس بيرالتا.

ـ أعرف هذا.. كانت صورها في صحف اليوم. قيل إنها مختفية والليلة أعلن والدها أنها مخطوفة.. أين وجدتها؟

ضحك أندريا: «لم أجدها بل هي وجدتني».

لكن التعبير في عينيه وهو ينظر إلى دنيس، كان بعيداً عن المرح.. كان كئيباً، عدائياً تقريباً، فسرت الرعشة في جسمها.

سألته المرأة بصوت حاد: «أنت لم تخطفها.. أليس كذلك؟»

وجدت دنيس أن الوقت قد حان لتتكلم عن نفسها:

ـ لا.. لم يخطفني.. تركت منزل والدي بإرادتي، وأنا هنا بمحض اختياري، ولأن ذراعي أصيبت صحبني أندريا إلى هنا.. أعتقد أنك الدكتورة سيموزا؟

انتفضت المرأة قليلاً، ووميضت عيناها السوداوان وكأنها تكره أن يحدثها أحد بمثل هذه الطريقة. نظرت إلى أندريا بحيرة، فضحك لها ساخراً:

ـ دنيس تقول الحقيقة، عايني ذراعها رجاء ثم ضمديها وبعد ذلك قومي بالترتيبات اللازمة لتصويرها بالأشعة غداً.

ـ في المستشفى؟

ـ طبعاً.

ـ لكن.. ألست..؟

التفتت الطبيبة إلى دنيس، وقالت بجدية:

ـ عزيزتي.. ألن تعودي إلى بيلباو؟

نظرت دنيس إلى أندريا مترددة بالنسبة لما ستقوله عن مخططاتها

التربية. عندما نظرت إلى أندريا شعرت بالراحة لأن النظرة العدائية ولّت من عينيه ونظر إليها نظرة حنون وكأنهما يتشاركان في سرّ ما. في تلك اللحظة تفتحت زهرة الحب التي كانت تكبر وتكبر طوال ذلك اليوم.. فابتسمت له، ناسية المرأة الأخرى التي تراقبهما، رافعة وجهها إليه وكأنها تأمل أن يعانقها. ضاقت عيناه قليلاً، ثم رد ابتسامتها بابتسامة حقيقية ثم رد على الطبيبة بدون أن يبعد نظره عن دنيس.

ـ لا.. دنيس لن تعود إلى بيتاو.. ستقيم معي.

حبست الطبيبة أنفاسها وشهقت شهقة خفيفة فالتفتا معاً ينظران إليها.. ولكن سرعان ما ارتدى وجهها قناعاً عملياً بارداً، قناعاً وضعته في مكانه بسرعة، لتقول بعده بعذوبة:

ـ هكذا إذن.. ليتكما تعرفان ما تقدمان عليه. ألم تفكرا في ما ستكون ردة فعل ديمتري بيرالتا عندما يعرف.. رافقيني عزيزتي سأعاين ذراعك في مكتبي.. أندريا، انتظر هنا.

ـ سي.. سأنتظر هنا.

ـ اسكب فنجان قهوة من الإبريق الكهربائي.. سأعود بعد دقائق. لدي أمور كثيرة أخبرك بها.

* * *

٤ ـ انتقام الابن

كان مكتب الطبيبة في الجهة الأخرى من الردهة.. كان شديد الإضاءة فيه مكتب عريض وعدّة كراسي جلدية، وسرير طويل للفحص وخزانة للملفات. تحركت الطبيبة سيموزا بسرعة وكفاءة، وساعدت دنيس على خلع كنزة أندريا، ثم حلت الضمادة عن رقبتها.

سألت بصوت حاد: «من ضمّدك؟»

ـ أندريا.

ـ همم، لم يكن عمله سيئاً.. والآن دلني على موضع الألم

كانت أصابع الطبيبة طويلة باردة.. عاينت الذراع بلطف ودقة، ثم سرعان ما أنهت معاينتها، لتقول:

ـ ليست مكسورة.. إنه التواء عظمي سيء.. صوريها بالأشعة لتتأكدي في الصباح.. لكن الدواء الوحيد هو الراحة. وسرعان ما تشفى لأنك شابة سليمة الجسم.. هل تخبرينني كيف أصبتها بالضرر؟ أرجو ألا يكون أندريا من فعل ذلك لأنه يكون في بعض الأحيان عنيفاً

كان في العينين السوداوين وميض بارد ذكر دنيس بوميض عيني زوجة برنابي.. هاهنا شخص آخر لا يحبها والأسباب نفسها

قالت: «وقعت في الجدول».

أخرجت الطبيبة من إحدى الخزائن جبيرة ولصوق وردي اللون ثم قالت معلقة:

www.liilas.com

ـ إذن، أرجو ألا يكون من دفعك.. أين كان الجدول؟

ـ في وادي الحمام، قرب إيلبارا.

حلقت ڤاليسا سيموزا بدهشة:

ـ آه.. إذن كان مختبئاً هناك طوال الوقت.

وضعت الجبيرة على ذراع دنيس وبدأت تعقدها وهي تسأل:

ـ لكن، لماذا ذهبت أنت إلى هناك؟

ـ اضطررت للابتعاد عن.. عن أبي.. كان عليّ الاختلاء بنفسي فترة معينة.. أترين، كان مقدراً عليّ الزواج هذا الأسبوع.

شدت أطراف الضمادة بدبوس معدني وقالت:

ـ أعرف هذا.. قرأت كل شيء في الصحف.. لقد فزعت إذن وهربت.. أن تتحدي والدك لخطوة شجاعة. لكن لماذا وادي الحمام؟

ـ ذهبت لرؤية ليوني.. ولم أكن أعرف أنها ماتت.

صمتت دنيس وقد أدركت أن من الصعب على الطبيبة معرفة عما تتكلم، وأضافت تشرح:

ـ كانت ليوني ميكوري مربيتي، وهي عمة أندريا.

ـ وعمتي.

ـ عمتك.. هل أنت ابنة عم أندريا؟

ـ بل أنا شقيقته الوحيدة.. ألم يخبرك؟

ـ لا، لأنه لم يخبرني الكثير عن نفسه.

ـ إذن لماذا كنت.. لماذا أنت.. أخشى أنني لا أفهم.. هل أقمت معه في «إيسكرأونا» ليلة أمس؟

ـ أجل، لقد دعاني للإقامة لأنه رآني مستاءة من خبر موت ليوني.

تنهدت ڤاليسا: «يا لنبله! لقد شعر بالأسى عليك وساعدك ومع ذلك تقولين إنك لا تعرفين عنه شيئاً؟»

ـ أعرف من هو والده ووالدته، وأعرف أنه مقيم في الوادي لأنه يواجه نوعاً من المتاعب.

دفعت دنيس ذراعها السليمة في كم الكنزة ثم نظرت إلى وجه ڤاليسا الرزين الأسمر.

ـ أتعرفين ما طبيعة تلك المتاعب؟

نظرت إليها ڤاليسا بريبة قبل أن ترتدّ إلى الوراء بهدف الجلوس إلى المكتب. أشارت نحو كرسي في الناحية الأخرى.

ـ اجلسي ستيوريتا.. عليّ أن أكتب مذكرة تحملينها معك إلى المستشفى.

التقطت قلماً وورقة ثم أردفت:

ـ يجلب أندريا لنفسه المتاعب، كأبيه.. من غير أندريا يظهر مع وريثة مختفية ويقول إنها ستقيم معه؟

عندما أنهت ڤاليسا كلامها نظرت إليها بحدة. أما دنيس فكانت مشغولة من الملاحظة الحادة التي ذكرتها بشأن أندريا، ولكنها تمكنت من الحفاظ على هدوئها وردت النظرة ببرود، قائلة:

ـ كان أندريا في غاية اللطف.. ألا تعرفين لماذا كان في الوادي؟ هل كان متورطاً بأعمال ضد الحكومة؟

ضحكت ڤاليسا: «أعمال؟ ديومبو! لا.. ترك أندريا هذه الأمور لديه طريقة أحذق من تلك لإظهار كرهه للكبت، والظروف السيئة، والأشخاص الأشرار في السلطة.. ألم تشاهدي قط رسوماته الكاريكاتيرية؟

ـ رسمات؟

أحست دنيس بالحيرة، ثم تذكرته وهو يجلس على الطاولة في «إيسكرأونا» يدخن ويرسم، ثم يقول في الصباح إنه كان يكسب رزقه.

ردت ڤاليسا بخشونة:

ـ سي رسمات، تظهر عادة رسومات ضاحكة يومياً في الصحف إنما لست ممن يهتم بهذا الجزء من الصحف؟

ـ أي جزء؟

تذكرت قوله إنه يهتم بكل جزء في الصحف.. وهذا منهم له حتى يجد خبراً يستطيع التعليق عليه كاريكاتورياً. ولكن لا شك أنها بدت جاهلة لأنها لم تكن على معرفة بطبيعة عمله، وهي التي تجرأت على نعته بالجهل!

- لو كنت تهتمين بصفحة التحرير التي تقدم التعليقات السياسية والاجتماعية، لعرفت كاريكاتير أندريا.. إنها توزع في جميع أنحاء إسبانيا وتنشرها صحف عدة. بدأ بالرسم وهو في المكسيك، ليكسب رزقه ثم اشتهرت رسوماته هنا ودعي للعودة إلى إسبانيا منذ ثلاث سنوات، دعاه زوجي الذي كان رئيس تحرير صحيفة «سان سيباستيان» لمدة ثلاث سنوات.. وكانت فرصة مكنت أندريا من إشباع رغبته كناقد حقيقي للأخلاقيات.. وهو الآن يرسم لوحات عالمية، ويتقاضى مبالغ باهظة ثمناً لها جعلته غير مضطر إلى الكاريكاتير.

- وهل يظهر الكاريكاتير بتوقيعه الحقيقي؟

- يستخدم اسمه الأول فقط، ولكن الجميع يعرف أنه ابن ستافرو ميكوري.

أنهت فاليسا الكتابة ووقعت الورقة ثم أعطتها إلى دنيس وفي عينيها نظرة عدائية باردة أخرى.

- لم تشاهدي أياً من كاريكاتيراته.. صحيح؟

- لا.. لم أشاهده لأنني لم أعش كثيراً في هذه البلاد، ولا أقرأ الصحف الإسبانية كثيراً.

سألت فاليسا والدهشة ترفع صوتها:

- ولم تسمعي والدك يذكر والدي أو أندريا؟

- لا.. أبداً.. لكن، أترين..

ترددت قليلاً ثم أكملت بسرعة:

- لم أكن أنا ووالدي على علاقة وطيدة.. هل الكاريكاتير هو ما جلب لأندريا المتاعب؟

- سي.. نشر له رسم كان انتقادياً أكثر من اللازم، وغير محترم، عن شخصية عامة شهيرة، وقد ظهر الكاريكاتور مع مقالة ناقدة بحق الشخصية نفسها بقلم زوجي خوزيه سيموزا. فكان أن تلقى ناشرو الصحيفة تهديداً من ذلك الشخص بإقامة دعوى تشهير إن لم يتوقفوا عن نشر كاريكاتير أندريا، وطرد زوجي.. ونتيجة ذلك، توقف أندريا عن الرسم واختفى. أما زوجي فاستقال واستلم مركزاً آخر في جريدة في بامبلونا البعيدة عن هنا وهذا يعني أننا مضطران إلى العيش مفترقين طوال الأسبوع.. ولكن، من الممكن أن تطلبه صحيفته القديمة مجدداً، بعدما تلاشت الضجة كلها.

- وهل ستنشر رسومات أندريا ثانية؟

- ربما، إذا كان حذراً ولكنه لم يكن مضطراً للاختباء في وادي الحمام.. كان بإمكانه الاستمرار في العيش في مرسمه، ولكنني أظنه اختفى بسبب أزمة من نوع شخصي.. لم يذكرها لك، على ما أظن؟

- لا.. كل ما ذكره أنه ابتعد ليفكر.

- همم.. إذن، كان الأمر كما ظننت. لقد أثر ذلك الأمر المؤسف في تفكيره.. أترين.. ثمة شخص يعرفه التحر. ويبدو أنه شعر بالذنب ظناً منه أنه لو تصرف بطريقة مختلفة لما حدث ما حدث.

- أكان ذلك الشخص امرأة؟

أحست بوخز الغيرة مجدداً.. ردت فاليسا ببرود، وهي تقف

- سي.. كانت امرأة. والآن، أهناك شيء آخر أفعله من أجلك سنيوريتا بيرالتا؟

نظرت دنيس إلى الهاتف الأبيض على الطاولة:

- هل لي باستخدام الهاتف؟ أود الاتصال بأبي، لأقول له إنني غير مخطوفة، وأطلب منه إيقاف التفتيش عني. لا أريد أن يطرح الحرس المدني أسئلة على الكثير من الناس.

- هذه فكرة عظيمة.. سأتركك حتى تتصلي.. ولكن، سامحيني

على هذا السؤال، هل ستقولين له إنك مع أندريا؟

ـ لا! سأقول له فقط إنني سالمة.

ابتسمت قاليا لأول مرة: «برتيو».

وخرجت من الغرفة، تغلق الباب وراءها بهدوء.

سحبت دنيس الهاتف نحوها.. ولكنها لم تطلب الرقم فوراً لأنها ما تزال مترددة بشأن ما ستقوله لأبيها، فهو لا ريب سيتأسد عليها.. يجب ألا تخبره أموراً كثيرة. طلبت الرقم ببطء شديد فردت عليها عاملة هاتف أعطتها دنيس رقم أبيها في بيلبار.. ما هي إلا دقائق حتى أصغت إلى رنين في الناحية الأخرى، مرة.. مرتين.. ولمّا كادت تضع السماعة من يدها رفع أحدهم السماعة الأخرى وسمعت صوت أبيها، الأجش المتسلط

ـ ديمتري بيرالتا هنا.. ألديكم المزيد من الأخبار؟

سحبت دنيس نفساً عميقاً، وتكلمت بالإنكليزية ليعرف فوراً من

هي

ـ دادي.. هذه أنا.. دنيس.

رد بالإنكليزية:

ـ شكراً لله! أين أنت؟ أين خبأك هؤلاء السفلة؟ ماذا يريدون؟

ـ دادي، أصغ إلي أرجوك.. لست مع سفلة، ولست مخطوفة.

تركت المنزل بملء إرادتي.

ـ لا أصدق.. إنهم يجبرونك على هذا القول.. أليس كذلك؟ ثمة شخص وراءك يهددك بطريقة ما.. لتقولي هذه الكلمات.

سعل قليلاً.. بدا غاضباً غضباً يكاد معه يجد صعوبة في التماسك عندئذ شعرت دنيس بالقلق عليه فجأة:

ـ دادي.. هل أنت بخير؟ ليتك تصغي إليّ. ليس هناك من يقف ورائي أو من يملي عليّ ما أقول. الحق أنني أقول الصدق.. تركت المنزل بالأمس في سيارتي، لأنك لم تصغ إلي. لم تصدق ما قلته عن

عدم رغبتي بالزواج من خوان، وأنا أتصل الآن بك لأقول..

قاطعها:

ـ أين أنت؟ هذه مكالمة بعيدة، أليس كذلك؟ قولي لي.. أين أنت؟

ـ لن أقول لك قبل أن تعلن للملأ إنني غير مخطوفة وقبل أن تعدني بإيقاف التفتيش عني.. لا أدري من أين خطرت لك فكرة الاختطاف.

ـ وماذا كان يفترض بي أن أفكر؟.. اختفيت بدون أن تتركي أية رسالة، وبدون أن تخبري أحداً بالمكان الذي ستلجئين إليه.. إلى أين ذهبت؟

ـ ذهبت لرؤية ليوني ميكوري.

ـ لكنها ماتت منذ أشهر.

ـ لم تخبرني.

ـ هل أنت هناك الآن؟

ـ لا.

ـ إذن أين أنت بالله عليك؟

ـ عدني أولاً أن توقف البحث، وأن تبلغ الحرس أنني لست مخطوفة.

ـ دنيس، أنا قادر على اقتفاء أثر هذه المكالمة، ثم سرعان ما أعرف مكانك.

ـ لست مضطراً إلى هذا. إن وعدتني بفعل ما أطلبه منك سأقول لك أين أنا، ومع من.

ـ حسن جداً.. أعدك. سأطلب من الحرس إيقاف عمليات البحث عنك. والآن، أين أنت؟

ـ في سان سيتيان.. في منزل طبيب.. لقد أصيبت ذراعي بضرر فأحضرني أحدهم إلى هذا المكان.

صاح: ديو.. من صحبك إلى هناك؟

www.liilas.com

- لا أستطيع ذكر الاسم.. لكنني بخير.

- واسم الطبيب؟

لا بأس بالتأكيد بقول اسم الطبيبة لأنه لن يربط إسم سيموزا باسم ميكوري:

- الطبيبة ڤاليسا سيموزا.

- ديوميو!

همس برعب ثم سمعت صوتاً وكأنه أوقع السماعة، فصاحت:

- أما زلت معي؟ هل أنت بخير؟ ما بك؟

عاد ليتنفس بصعوبة:

- لا شيء.. دنيس، ابقي هناك، في ذلك المنزل، مع الطبيبة يجب أن أراك.. سأكون عندك في أسرع وقت ممكن.

- لكنني لا أريد أن..

توقفت عن الكلام، إذ لم يكن هناك من تتحدث معه.. فقد عادت سماعته إلى مكانها بعنف أعادت السماعة ببطء ثم نظرت إلى الباب الذي فتحته ڤاليسا ودخلت سائلة:

- هل اتصلت بوالدك؟

- أجل.

- ماذا قال عن تهمة الاختطاف؟

- وافق على إيقاف عمليات البحث عني شرط أن أذكر مكان تواجدي. قال إنه سيتعقب المكالمة إن لم أقل له.

- يبدو لي أمراً منطقياً.. لا شك في أنه قلق جداً عليك.

- اضطررت إلى أن أذكر له اسمك وعنوانك. أرجو ألا يكون عندك اعتراض. لقد قال إنه قادم إلى هنا غداً صباحاً، ولم أتمكن من منعه لأنه أنهى مكالمته.. والآن، لا أدري ما أفعل.. ماذا سيقول إن جاء ولم يجدني؟ قد يسبب لك المتاعب إن لم تخبريه بمكاني.

- هذا أمر سهل حله عزيزتي، أهلاً بك لقضاء الليلة عندي.. في

الواقع هذا أفضل حل حكيم في الظروف الحاضرة.

- حكيم بالنسبة لي أما بالنسبة لأندريا؟

أحست بالغيرة مجدداً إنما من السخف الإحساس بالغيرة من شقيقة رجل.. ولكن ڤاليسا تعرف أندريا منذ سنوات طويلة. شاركته طفولته، وشبابه، وخبراته وتجاربه، وتعرف كل شيء عن علاقاته الحميمة مع المرأة التي انتحرت.

ردت الطبيبة بهدوء:

- لكما معاً بالطبع.. لا أريد أن يتأذى أي منكما.

ساد صمت قصير، تبادلتا فيه النظرات ثم تحركت ڤاليسا نحو المكتب وجلست على أحد أطرافه، وعيناها السوداوان حادتان ممعنتان النظر:

- لا أدري ما كان يجري بينكما.. ولكنني قادرة على التكهن بميل أندريا فطرياً إلى مشاركة الناس مآسيها خاصة تجاه من يشعر أنه تعرض لمعاملة سيئة.. ولهذا قال لك إن بإمكانك البقاء معه.. الآن، أنا قلقة، لأنني لا أرغب في أن يتعرض للمتاعب بسبب صلته بك.. والدك ذو نفوذ قوي والمعروف عنه أنه يسرع إلى استنتاجات كانت وقائعها مأساوية. الخطف تهمة خطيرة ومع ذلك لن يتردد ديمتري بيرالتا في توجيهها إلى أخي إن وجدك مقيمة في مرسمه.

- لكن، سيكون هناك أدلة على العكس.. سأقول إنني هناك بمحض إرادتي.

- بإمكانك قول هذا.. ولكنني أشك كثيراً في أن تجدي من يصدقك في هذه البلاد.. يجب أن تتذكري سنيوريتا أن فتاة إسبانية حسنة التربية، لا تعيش مع رجل إلا إذا تزوجته.. فحتى في هذا العصر والزمان لا يتمازج الحبيبان قبل الزواج.. ومن السهل تصور ردة فعل والدك إن عرف أنك كنت مع أندريا وما زلت معه. أتريدين حقاً الأذية لأندريا؟ يستحسن أن يجدك والدك في منزلي

www.ailas.com

طاطأت دنيس رأسها لتنظر إلى سطح المكتب اللماع ولكنها بكل تأكيد لم تكن تراه. لقد رأت التمثل في ما قاله فاليسا، وعرفت أنه الطريق الحكيم. ومع ذلك فكل ما استطاعت التفكير فيه الآن هو أن أندريا لا يريدها حقاً إذ ما هي بالنسبة له سوى هرة شاردة آواها ليلة ومستعد لإيوائها ليلة أخرى.

قالت فاليسا مشفقة:

- كان يومك سيئاً جداً عزيزتي.. وأنت متألمة، ومرتبكة.. أنا واثقة أنك ترغبين في الاستحمام. أيحوزتك ملابس أخرى؟

- إنها في السيارة.

- إذن، ما قولك؟ أتودين الاستحمام؟

- أجل.. أرجوك.. لكن..

ابتسمت فاليسا تمد يدها:

- لا تقولي المزيد.. سأطلب من أندريا جلب ثيابك، وسأرسل لك روزيتا.. وفيما أنت في الحمام فكري في اقتراحي.

بعد ثلاثة أرباع الساعة، كان شعرها مسترسلاً براقاً مرة أخرى.. نظرت دنيس إلى نفسها في المرآة الطويلة في غرفة الضيوف الجميلة، حيث ساعدتها روزيتا على ارتداء ثوبها وإعادة الجديرة إلى ذراعها مجدداً. كانت ترتدي تنورة من الكشمير مخططة وبلوزة من الحرير الوردي. لقد عادت بثيابها هذه دنيس بيرالتا التي تعرفها باردة يهلوء وأناقة، ذلك أن العاطفة التي ولدت في قلبها لم تظهر على ملامحها.

أعادت روزيتا إغلاق الحقيبة ورافقتها إلى الأسفل حيث وضعت الحقيبة قرب الباب، ثم دخلت دنيس إلى الصالون، الذي كان فيه أندريا وفاليسا. كان أندريا مستنداً إلى خزانة أدراج حاملاً فنجان قهوة في يده، وكانت فاليسا واقفة قربه. بدا واضحاً أنها كانت تجادله بطريقة حادة وقد بان ذلك من خلال حركات يديها المتعددة ومن خلال احمرار عينيها السوداوين. صمتت حالما أدركت أن أندريا لا يصغي إليها لأنه كان

ينظر إلى ما وراءها فالتفتت نحو دنيس وصاحت مذهوشة:

- آه.. تبدين أفضل حالاً بدرجات. أنا واثقة أنك ترغبين في ما تأكلينه وتشربينه الآن.. سأطلب من روزيتا تحضير طعام على صينية لك.

وخرجت من الغرفة..

تقدمت دنيس ببطء إلى أندريا الذي استدار ليضع فنجانه على سطح الخزانة قبل أن يعود لينظر إليها بعينين ضيقتين، وسألها بأدب:

- كيف حال ذراعك؟

- ما زالت تؤلمني ولكن الطبيبة سيموزا تقول إنها ستعطيني حبوباً مضادة للألم.. أخبرتني أنها شقيقتك كما أخبرتي معلومات عنك وعن زوجها وبالأخص معلومات عن تورطكما في متاعب من جراء مقالة وكاريكاتير.. أكنت ترسم كاريكاتيراً بالأمس؟

- أجل.. واقترضت سيارتك لأوصلها إلى صهري في «باسيلونا». لقد ظننتني متورط بما هو أكثر خطورة.. هكذا قالت فاليسا.

ردت بمرح: «لم أستطع منع نفسي.. فقد كنت كتوماً، ولم تقل لي شيئاً عن نفسك».

قال ساخراً: «فكان أن تركت لخيالك العنان».

تقدم إلى أحد الأرائك العاجية اللون، والتقط سترته الجلدية. ثم، ارتداها وعاد يقف أمامها حيث راحت عيناه تطوفان فوقها.

- تبدين مختلفة الآن.. فما عدت تلك الهرة الشاردة. هل أنت على استعداد لمرافقتي إلى مرسمي؟ إنه في قرية صيادين اسمها «مارتينز» تقع ما بين هذه البلدة وبلدة «بيرميو».

عرفت دنيس اسم القرية، وعرفت أنها مقر للعديد من الفنانين.

سألته متحدية: «ألا تريد أن أرافقك؟»

لو قال أجل لذهبت معه واللعنة على نصيحة فاليسا.. اللعنة على أبيها..

استند أندريا مجدداً إلى خزانة الأدراج، ودس يديه في جيبي سرواله الجينز. كانت عيناه برّاقتين قاسيتين عندما قال ببرود:

- ليست المسألة ما أريد أنا.. نينا. بل ما تريدين أنت. لديك الآن بديل.. لقد عرضت عليك ڤاليسا المبيت عندها وهي تقول إن والدك قادم غداً لرؤيتك.. وتقترح أن تكوني موجودة هنا لا عندي.. مع أنني لا أميل دائماً إلى اتباع نصائحها.. ولكنها في هذه الحالة محقة.

إذن لم يكن يريدها حقاً.. غمرتها خيبة الأمل بموجة باردة انسحبت لتترك مشاعرها فارغة يائسة. ولكنها رفضت أن يرى ما تحس به..

فرفعت رأسها واعتدلت في وقفتها ثم ردت ببرود وتعقل:

- موافقة.. سأبقى هنا الليلة.

أخرج ببرود مماثل مفاتيح سيارتها من جيبه:

- بونيو.. سأعطيك هذه إذن.

أخذت المفاتيح ثم أطبقت أصابعها عليها فآلمت أطرافها الحادة الرقيقة.

- كيف ستصل إلى مارتينيز؟

شعرت بأن فراقه سيؤلمها أكثر مما توقعت.. رد بدون اكتراث:

- إن أسرعت قليلاً لحقت بآخر باص متوجه إلى هناك.

أسرعت وراءه، تسأل باندفاع:

- أندريا.. ألا يمكن أن نكون صديقين؟

التفت إليها ورد بصراحة:

- لا.

- لماذا؟

- ثمة فروقات كثيرة.

ردت بسخرية مرحة حتى تخفي ألمها:

- أوه.. أجل.. الشق.. ولكن الشقوق قد تتصل بجسور.

- ليس هذا الشق.. أنت ثرية، وأنا فقير..

ردت بسرعة: «لكنك لست فقيراً كما صورت نفسك، فلن تكون فقيراً ما دمت رساماً ناجحاً يوشك أن يصبح معروفاً. لا أرى سبباً يحول دون التقائنا أحياناً في سان سيبستيان أو بيلباو أو حتى في مارتينيز.. قد نتناول القهوة معاً، أو العشاء، ونتكلم..»

نظر إليها بسخط، وقاطعها بفظاظة:

- لا.. لا أدري ما يدور في ذهنك الآن.. إنما فلنوضح أمراً واحداً.. هه؟ بما أن لديك الآن مكان تبيتين فيه ليلتك فهذا يعني أن تعارفنا القصير الأمد انتهى الآن هنا. سأعود إلى حيث كنت أعيش، لأتابع حياتي.. أما أنت فستعودين على الأرجح مع والدك إلى بيلباو لذا لا أجد سبباً يدعونا إلى الاجتماع ثانية.. طرقنا في الحياة لا يمكن أن تتقاطع.

- لكن..

- بوناس نوتشاس سنيوريتا.. عمت مساء. عليّ أن أصل إلى الباص قبل أن يذهب.

ارتد على عقبيه واتجه مجدداً إلى الباب.. ولكنها لحقت به

- أندريا.. أرجوك!

استدار مجدداً فلمّا رأى التوسل على وجهها، لانت تعابير وجهه وأطلق نفساً متفجراً، ثم مال إليها فجأة يلثمها على وجنتها ببطء، إنما بدون أن يضمها بين ذراعيه وبدون أن يعانقها. ولكنها تمسكت به فامتدت ذراعاه تطوقانها وأرجع رأسه عنها ببطء ليضع خده على رأسها ضمها لحظات، ثم همس في أذنها: «وداعاً» وتركها فتحت عينيها فرأته خارج الغرفة، وسمعته يقول شيئاً لشخص ما في الردهة، ثم صفق الباب الأمامي وراءه بعنف.

أشاحت بوجهها بسرعة لدى دخول ڤاليسا لأنها لا تريد أن ترى دموعها. قالت الطبيبة بلطف.

- إذن.. قررت البقاء. أنا مسرورة جداً. أحمل إليك ما تأكلينه.

www.liilas.com

تعالي واجلسي هنا.

جلست دنيس على الأريكة، تأكل الطعام، وتحتسي الشاي.. عندما انتهت أعطتها ڤاليسا علبة دواء صغيرة فيها أقراص مضادة للألم، ثم جاءت روزيتا ورافقتها إلى غرفة الضيوف، لتساعدها على خلع ملابسها.

كان مفعول الأقراص فعالاً وسريعاً، أراح ألم قلبها كما أراح ألم ذراعها إذ سرعان ما شعرت بالنعاس، وسرعان ما غطت في سبات عميق.

استيقظت على صوت يناديها:

- سنيورا بيرالتا.. استيقظي.. استيقظي.. والدك هنا وهو يطلب رؤيتك. استيقظي.. استيقظي سنيورينا؟

ظنت للوهلة الأولى أنها ما تزال في «إيسكراونا» وأن والدها لحق بها إلى هناك، ووجدها مع أندريا، فأوقفه بتهمة الخطف.. ثم فتحت عينيها فرأت روزيتا تطل برأسها فوقها. عادت ذكرى ليلة الأمس بسرعة. لقد رحل أندريا، وهو آمن الآن بحيث لن يستطيع والدها اتهامه بالخطف.

حثتها روزيتا: «هيا سنيورينا.. انهضي، سأساعدك على ارتداء ملابسك. سنيور بيرالتا يتوق إلى رؤيتك ويريد الاطمئنان بنفسه على سلامتك».

لم يكن هناك طريقة لتجنب رؤية والدها.. وتمنت في الحمام الصغير الملحق بغرفة النوم لو تكون لها القوة لتقاوم الضغط الذي سيمارسه عليها للزواج بخوان.

كان والدها يقف قرب إحدى النوافذ، ينظر إلى صورة أخذها عن رف عليه بعض الصور. عندما أحسّ بها تدخل، أعاد الصورة إلى مكانها وتقدم إلى الأمام نحوها.. التفت ذراعاه حولها يضمها بحرارة. كانت رائحته رائحة السيگار الفاخر، والعطر الغالي الثمن وكان قماش بزته الأنيقة الرائعة ناعماً طرياً تحت خدها.

أبعدها عنه بتطرس بها ثم تمتم:

- دنيس.. لقد عشت جحيماً كاملاً في هذين اليومين. هل أنت بخير؟

أخافها اللون الرمادي الذي استولى على وجهه المتورد عادة.. فهي لم تره قط متكدراً هكذا.

- أنا بخير! باستثناء هذه الذراع السخيفة أنا بأتم خير وعافية.. أوه.. لا تنظر إليّ هكذا.. أنا بخير.. ولم أكن مخطوفة.

- إذن، ماذا تفعلين في هذا المنزل.. ومن صحبك إلى هنا؟

قالت متوسلة: أبي.. أرجوك لا تثر هكذا. لقد جئت باكراً جداً.. هل أنت بسفرك؟

- أجل.. جئت بالطائرة هذا الصباح.. أردت رؤيتك بنفسي.

- إن جئت تقنعني بالعودة للزواج بخوان اليوم، فسأقول لك إنك تضيع وقتك هدراً لأنني لن أتزوجه.

نظر إليها بغضب ومرارة، ثم ابتعد عنها:

- لقد خُلق الزفاف.

- خُلق؟

- سي.. كان عليّ وعلى جولي القيام بشيء ما عندما اختفيت. كان علينا تدبر الأمر قبل توافد الضيوف. علقنا الموعد إلى أجل غير مسمى. ثم أوقفت المفاوضات مع دورينالدا حتى تحل مشكلتك ومشكلة خوان.

تقدم منها يمسك يدها بكلتا يديه، وقال بعذوبة:

- كان عليّ القيام بشيء، كويريدا. لأظهر لك أنني أهتم بك أعترف أنني لم أكن أفضل الآباء. لقد فقدنا تواصلنا كويريدا؟ منذ ماتت أمك.. أنا..

صمت ثم ابتعد عنها ليجلس على أريكة.. ويقول بهدوء:

- تعالي واخبريني أين كنت، وماذا فعلت منذ تركت المنزل.. ماذا فعلت عندما عرفت أن ليوني غير موجودة حيث توقعت.

جلست على مقعد صغير قرب قدميه:

ـ لماذا لم تخبرني أنها ماتت؟

ـ ظننت أنني.. على الأقل ظننت.. أن أحداً ما أخبرك. راسلني أخوها دومنيك قائلاً إنها ماتت، وإنه لا حاجة بي لأستمر في دفع راتب تقاعدها.. في ذاك الوقت كنت مسافرة إلى فلوريدا، تقيمين مع أسرة دورينالدا. أنا واثق أنني أعطيت التعليمات لألفونسو حتى يراسلك.

ألفونسو هو سكرتيره الخاص الذي يعتني بمراسلاته، رجل بارد كثلج، ظالما وجدته دنيس مقززاً للنفس.

أردف الأب بحدة: «ماذا فعلت حين وجدت أن ليوني ليست هناك؟»

عرفت أنه من الصعب عليها ألا تخبره بغير الحقيقة، فردت وهي ترد نظرته المفعمة بالشك.

ـ بقيت في المنزل الذي كانت تعيش فيه.

ـ بمفردك

ـ لا

ـ من كان هناك؟

ـ أحد أبناء أخيها.

ـ أيمكن أن يكون بالصدفة شقيق هذه الطبيبة التي تقيمين معها؟.. أندريا ميكوري؟

أدهشتها معرفته بالعلاقة بين أندريا وڤاليسا فأرجعت شعرها إلى ما وراء أذنيها، ونظرت إلى عينيه بشجاعة.

ـ وكيف عرفت؟

ـ لأحد أبناء شقيقي ليوني فقط الحق في ذلك المنزل.. الابن الأكبر، لأكبر أبناء أبيها.. وأندريا ميكوري هو الابن الوحيد لستافرو ميكوري. هل أجبرك على الإقامة معه؟

ـ لا لم يفعل.. بل دعاني للإقامة.

رد ساخراً: «إذن، دعاك للإقامة.. ألم يخطر ببالك رفض دعوته؟»

ـ بلى.. ولكن الوقت كان متأخراً. ولأنه لم يكن في القرية فندق أستطيع المبيت فيه.. ولأنني متعبة وغير قادرة على قيادة السيارة للتفتيش عن مكان قبلت دعوته.. لم أظن أن في هذا أي ضرر.

ـ أتبيتين ليلتك في مزرعة نائية مع فنان سيء السمعة، مشهور ليس فقط برسوماته التي تحرك الاضطرابات في كل البلاد، بل كذلك بعلاقاته المشبوهة مع النساء، ثم تقولين إنك لم تظني أن في ذلك ضرراً؟

امتقع وجهه مجدداً وأردف غاضباً:

ـ يا إلهي دنيس.. لا شك أنك على درجة من السذاجة حتى تفكري هكذا.

ردت تدافع عن نفسها:

ـ لم أكن أعرف عنه شيئاً.. وكيف لي أن أعرف؟

ـ لم يكن عليك أن تعرفي شيئاً بل كان على عقلك السليم أن يخبرك.. وإن وضع إصبعاً عليك فـ...

قاطعته بلهفة.

ـ لم يفعل.. لم يفعل! حتى وإن فعل، فهذا شأني أنا، لا شأنك لم يفعل شيئاً ضد رغبتي.

ـ ماذا يعني هذا؟

ردت ببرود وهي ترد على نظرته بنظرة أبرد منها:

ـ يعني.. أنني حين أصبت ذراعي بأذى، ضمدها لي.. وحاول مساعدتي كما لو كان ليوني لذا لا تترك عقلك يستنتج استنتاجات متسرعة. لقد قالت الطبيبة إنك قد تقدم على هكذا استنتاجات لذلك لم.

صمتت تعض شفتها وكادت تقول له إنها كانت تنوي قضاء ليلة أخرى مع أندريا.. لكنه لم يلاحظ ترددها، فقد انتقل اهتمامه إلى ذراعها.

www.liilas.com

- كيف حال ذراعك؟ أرجو ألا تكون مكسورة؟

- لا ليست مكسورة، إنما يجب أن أصورها بالأشعة غداً.

- وكيف أصبت؟

شرحت باختصار ما حصل إنما بدون ذكر ما جرى في الكهف.. راقبت تعابير السخط والقلق والحيرة تتبدل على وجهه.. ثم قال متذمراً:

- لكنني لا أفهم.. ما الذي أوصلك إلى هناك؟

- كنت ألتقط الزهور، لأعود إلى القرية حتى أضعها على قبر ليوي بعدما كنت أنوي ركوب سيارتي و

- والعودة إلى بيلباو؟

- لا لا لم أكن مستعدة للعودة.. لكن بعدما أصبت ذراعي تعقّد كل شيء ثم عرض عليّ أندريا أن يقود سيارتي ليصحبني إلى طبيب

عادت الريبة إلى صوته:

- ولماذا لم يوصلك إلى بيلباو؟

- لأنني لم أكن أريد العودة قبل الغد خشية أن تظن أني عدت لأتزوج محوار

بدت مرة أخرى الريبة في عينيه

- هل أنت واثقة أنه لم يقنعك بعدم العودة؟

- كل الثقة. يجب أن تتوقف عن التفكير في أنني اختطفت أو في أنه أجبري على القيام بما لا أريد.. يجب ألا يعرف أحد أنني كنت معه.. أليس كذلك؟ لن أخبر أحداً أين كنت، وأنت غير مضطر للقول.

رد متجهماً: «لست مضطراً؟ ما تقترحين إذن أن أقول للحرس المدني؟ وماذا تقترحين أن أقول للصحافة؟»

- قُل لهم إنك أخطأت، وإنني ذهبت للإقامة عند أصدقاء في الريف، وإنه ليس لديك تعليق آخر. فهذا بالضبط ما سأقوله إن سألني أحدهم..

- ولنفترض أن أحداً سأل ميكوري؟ فهل سنستطيع السيطرة على ما قد يقوله؟

مال إلى الأمام، واضعاً مرفقه على ركبته، مسنداً رأسه إلى يديه، ليقول متأوهاً:

- يا إلهي! يا لها من ورطة! لا أقوى على منع نفسي من التفكير في أنه استبقاك في الكوخ انتقاماً.

- ماذا تعني بهذا؟

- الانتقام مني.

سرت فيها رعشة باردة. سألت: «الانتقام لماذا؟»

- لمقتل والده.

اجتاحت الصدمة أعصابها، وتذكرت وجه أندريا عندما اعترف بأنه يعرف الشخص الذي خان والده..

- أنت الذي.. الذي..

ولم تستطع قول المزيد.

- أخبرك عن هذا إذن.

- لا.. بل قال إنه يعرف من خان والده.

- كانت غلطة، وهي أسوأ ما ارتكبت في حياتي

- لكن كيف حدث هذا؟ أكنت تعرف ستافرو ميكوري؟

- لا.. لم أكن أعرفه.. سمعت عنه، وأعجبت به كثيراً لخطاباته وشجاعته.. ولكنني لم ألتق به قط.. ولو كنت أعرفه، لعرفته تلك الليلة عندما وصلت إلى المنزل الذي أملكه في المارتينيز لأجده هناك مع أمك. كانا يتحدثان ويضحكان وكأنهما صديقان قديمان فاشتعلت غضباً لأن أمك خلال سنتين من زواجنا لم تتحدث أو تضحك هكذا معي فظننتهما عشيقين، وفي ثورة غيرة طردته من منزلي. فحاولت أمك الاحتجاج، لكنني لم أصغ إليها.. أما ستافرو فاعتذر على ما سببه من إزعاج وغادر المنزل، ليسير مباشرة إلى الكمين المعد له، ولم تعرف أنه

قتل إلا بعد يومين.

اجتاح دنيس البرد الشديد فسألت:

ـ هل عرفت ليوني بهذا؟

ـ مي.. عرفت.. عشيرة ميكوري كلها عرفت.

هذا ما يفسر العداء الذي شهدته من برتابي وزوجته.. ويفسر تعليقات أندريا وتصرفاته نحوها.. ثم قالت بلهفة:

ـ لكنها كانت غلطة.. أليس كذلك؟ لم تخنه عامداً متعمداً.

ـ أجل، كانت غلطة.. غلطة دفعت ثمنها مرات ومرات، وبطرق متعددة. لذلك قلقت عندما عرفت أنك هنا في منزل ابنة ستافرو.. إذ فكرت أنهم قد يتنقمون مني عبرك.. وأنا لا أثق بأندريا ميكوري.. ليس بعد فضيحة زوجته السابقة.

ـ أي أي فضيحة؟

ـ كانت فتاة أميركية.. جاءت منذ سنة إلى مرسمه في مارتينيز لتراه. ويبدو أنهما تشاجرا فغادرت منزله منفعلة انفعالاً شديداً ثم وجدت اليوم التالي غارقة في مكان بعيد على الساحل.

«إنه يمر بأزمة نفسية. لقد ماتت فجأة امرأة يعرفها جيداً ويحس أنه ملام» طنّت كلمات ثاليسا في أذنها وخفق قلبها ألماً على أندريا.

سألت: «كيف عرفت بالأمر؟»

ـ لقد تصدر خبر موتها عناوين الصحف، كانت ابنة ثري أميركي، وقعت في سحر ميكوري عندما كان يعلم الفنون في جامعة كاليفورنيا.. تهربت معه، وتزوجته ضد رغبات أبيها.. أتفهمين الآن.. كويريدا.. لماذا قلقت عليك؟

ـ أجل، فهمت.. إنما لا حاجة بك للقلق.. فأندريا لا يحبني لأنني ابنتك، ولقد أصرّت الطبيبة سيمورز على المكوث عندها لأنها لا تريد أن يقع أخوها في المزيد من المشاكل. وأنا واثقة بأنه لا ينوي الانتقام منك على موت أبيه بواسطتي.. أعني كيف له أن يؤذيك

بواسطتي؟

تفرس بوجهها بعينين قلقتين وقال ببطء:

ـ هذا مرهون بما هو قادم.

هبّ واقفاً ثم أردف:

ـ ماذا ستفعلين الآن؟ هل ستعودين معي إلى بيلباو؟

ـ فقط إن وعدتني بأنك لن تزعجني بموضوع خوان.

ـ لكن.. دنيس، علينا مناقشة هذا الموضوع وعليك أن تخبري بنفسك خوان بعدم رغبتك في الزواج إذ لا أستطيع القيام بذلك نيابة عنك.

ـ هل هو.. في بيلباو الآن؟

ـ لا.. لم يأت، منعناه من المجيء حتى نعرف عنك شيئاً.

ـ إذن، سأرافقك إلى المنزل.. أترى.. ليس معي مال لأنني فقدت حقيبتي عندما وقعت في الجدول، لذا لن أستطيع شراء الوقود لسيارتي، ولا يمكنني الإقامة في فندق، ولا أستطيع قيادة سيارتي وذراعي هكذا. وسنضطر أنت إلى قيادتها.

ابتسم لها وهو يضع ذراعه حولها ليحضنها.

ـ سأكون مسروراً بذلك، كويريدا.. سأكون مسروراً.

حينما كانت السيارة تشق طريقها إلى مدينة بيلباو مروراً بأبنيتها السكنية المرتفعة، ومواقف المجمعات الصناعية، عرفت دنيس أنها أصيبت بالأنفلونزا إذ كانت حنجرتها تحرقها، وكان جسدها يشتعل حيناً ويبرد أحياناً كما شعرت بأن أذنيها مسدودتان، وأن الغدد في حلقها متورمة.. وهذه مشكلة صحية طالما عانت منها في طفولتها ومراهقتها وفي الواقع أن هذا المرض هو الذي أرسلها إلى إسكرأونا منذ ثماني سنوات.

عندما وصلت إلى منزل والدها توجهت مباشرة إلى فراشها. ثم عاينها الطبيب الذي قال إنها تعاني من التهاب اللوزتين يرافقه ورم في

بعد... ووصف لها الدواء ثم طلب منها الراحة التامة وعدم مقابلة الزوار.

مر أسبوع قبل أن تتمكن من الابتلاع براحة، وكان الطبيب قد أصر على عدم العودة إلى نشاطاتها المعتادة بسرعة.

اعتنت بها الخالة جولي التي مكثت هناك بعد عودة دنيس، ورافقتها إلى المستشفى لتصوير ذراعها بالأشعة... وقد أظهرت الصورة أن الالتواء الخفيف في العظم بدأ يلتئم وأنه سيشفى بعد أسبوع.

بذلت جهدها لنفض الكسل الذي سيطر عليها منذ عودتها ولكنها وجدت ذلك أمراً صعباً... فما كان يشغلها سابقاً فقد جاذبيته، وبما أن معظم الأعمال التي كانت تقوم بها رياضية، لم تتمكن من المشاركة فيها قبل شفاء ذراعها... كانت تجلس في صفوف المشاهدين، ترقب بعض أصدقائها وهم يلعبون التنس ولكنها توقفت عن ذلك لأن التنس كان يذكرها بخوان وهي لا تريد التفكير فيه أو مناقشة مسألة الزواج به.

بيد أن أباها لم يتجنب ذكر الموضوع بل دأب على ذكره مراراً ومراراً وكان كلما تطرق إلى هذا الموضوع وقع جدال شديد يكاد يفقدهما صوابهما.

في نقاشهما الأخير قالت له باكية بعدما ضيق عليها الخناق:

ـ أبي لم أرجع... لم يتغير شيء فما زلت تريد أن تدير لي حياتي!

هدر هستيري في وجهها، ووجهه يكاد يصبح أسوداً:

ـ أريد لك السعادة... أحاول القيام بما يجلب عليك الخير العميم... أقوم بواجبي كأب... ولهذا أعتني بمستقبلك... إن تزوجت خوان تأمن وضعك المادي وتمكنت من العيش بالمستوى الذي اعتدت عليه.

ـ ولكن... ألا ترى أنني لا أهتم بهذا؟ إن ثرائي لم يمنحني الحب الذي احتاجه... بل الواقع أن ثرائي وقف بيني وبين الحب... آه ليتك تخسر كل أموالك! ليتنا كنا فقراء!

رد بفظاظة: «دنيس... ما أغبى ما أسمعه!»

تحول وجهه من اللون القرمزي القاتم، إلى اللون الأبيض الرمادي وتحولت عيناه إلى نظرة ذعر رهيبة، فمد يده إلى ظهر كرسي ليدعم نفسه، وكأنه يخشى أن يقع.. لكن دنيس الغاضبة بشدة لم تلاحظ حالته إذ أردفت:

ـ لو لم أكن ابنتك ولولا ثراؤك، لما كنت تحاول حمايتي بتزويجي برجل ثري مثلك... لو لم أكن ابنتك، لتمكنت من العمل لأكسب قوتي... ولكنت تدربت على عمل ما ولتمكنت من العيش مع الرجل الذي أريد.. لو لم أكن ابنتك، لما كرهني أندريا ولرغب في أن أعيش معه ولما تركني في منزل شقيقته تلك الليلة، ولما اضطررت للعودة إليك... ولكنت الآن معه هناك لا هنا..

صاح يقاطعها: «آه! ربي!»

مال فوق ظهر الكرسي، ينظر إليها برعب شديد دفعها إلى الاقتراب منه بلهفة:

ـ أبي.. ما الأمر؟.. ماذا قلت؟

تمتم: «رباه! هذا هو الأمر، رباه!»

تضاعف قلقها عليه:

ـ أبي... أنت مريض.. سأحضر لك السنيور الفونسو... أوه أرجوك، اجلس... أو استلقي.

أبعد يدها عنه، ووقف مستقيماً بقوة العناد والكبرياء... وقال ببرود:

ـ لا داعي إلى ذلك. لقد ولّت النوبة. اذهبي من هنا، عودي إلى غرفتك.. فما دام هذا شعورك، فلا حاجة إلى المزيد من الجدال، وبما أنك متعلقة بعبكوري، فمن الأفضل أن تذهبي لتقولي له إنك تريدين العيش معه.. إنما إياك والعودة إليّ لاحقاً إن رفضك.

ـ أبي.. أنا آسفة... فقدت صوابي.. لم أقصد.

قاطعها بفظاظة: «ما قيل قد قيل.. ظهرت الحقيقة لقد حصل

www.liilas.com

سيكوري على انتقامه.. لقد وصل إليّ عبرك. أغواك.. أغوى طفلتي الوحيدة. ديوبير. لا أتحمل التفكير في هذا.

- لا.. لا.. هذا غير صحيح.. أوه.. ليتك تصغي إليّ.

- لقد أصغيت بما فيه الكفاية.

ثم ارتدّ على عقبيه تاركاً الغرفة.

ذهبت دنيس إلى غرفتها المخملية والحريرية الجميلة، وجلست إلى طاولة الكتابة لتكتب رسالة إلى خوان تقول له فيها إنها لا ترغب في الزواج به..

حملت الرسالة إلى صندوق البريد ثم عادت إلى منزل والدها وهناك قصدت مكتبة أبيها التي جمعت منها كومة من الصحف حملتها إلى الشرفة المطلة على مرجة خضراء رائعة.

تمددت على كرسي نوم طويل وبدأت تتصفح صفحات الصحف..

يجب أن تتدرب على عمل ما في سبيل كسب قوتها فهي لا تقوى بعد الآن على الخضوع لإرادة أبيها. أرادت البحث في باب الإعلانات عن عمل ما أو عن أي نوع من التدريب المهني، ولكنها أثناء تقليب الصفحات. وجدت رسماً كاريكاتورياً لأندريا.. والرسم يسخر من سياسيين محليين معروفين.. لم تستطع إلا الضحك وفي هذه اللحظة وصلت جولي إلى الشرفة.

- إذن أنت هنا؟

ترتدي جولي كالعادة بذلة أنيقة مميزة.

أردفت: «ما أروع سماع ضحكاتك مجدداً.. تبدين كما كنت أصلاً.. هل في الصحيفة ما يضحك؟»

أقفلت دنيس الجريدة بسرعة لئلا تلاحظ الخالة أنها تنظر إلى رسم كاريكاتوري. وقالت:

- ليس تماماً.. تبدين كالعادة يا خالتي.. هادئة جداً وأنيقة جداً. تبدين وكأنك أصغر من عمرك بعشر سنوات.

ردت جولي بطريقتها المرحة، وهي تجلس على مقعد:

- لكنك بكل تأكيد لا تعرفين عمري الحقيقي.. يا له من يوم رائع.. كنت أكلم عوارد لتوي هاتفياً.. يقول إن الجو ممطر في لندن وإنه سيكون بانتظاري في المطار بعد الظهر.. على فكرة، شيلدا ستعود في الأسبوع القادم، من مهمة دامت ستة أشهر في عيادة طبية، في مكان لا يعرفه سوى الله في إفريقيا.

- ليتني أتمرّن على التمريض أو على ما هو مفيد مهما كان. طلبت من والدي السماح لي بالعمل إثر تخرجي ولكنه لم يصغ إليّ.

- أعرف.. إنه إسباني التفكير فهو يؤمن أن مكان المرأة هو منزلها.. وتعرفين أنه يقوم بما في وسعه لترتيب مسألة زواجك بخوان.

- أجل.. أعرف.. فهو لا يتوانى عن ذكر الأمر في كل مناسبة. ولكن زواجنا لن ينجح.. إذ سيكون الزواج بخوان مصدراً لكآبتي. كان سيتزوجني فقط لأكون واجهة لنشاطات أخرى.. فهو لا يحب النساء حقاً.

- همم.. لاحظت هذا..

- مع ذلك تركتني أمضي قدماً في الزواج به؟ بل لقد شجعتني على الزواج!

- عزيزتي.. لم أكن أعرف ما تشعرين به حتى ذلك اليوم الذي قلت فيه إنك لن تتزوجيه ولم يكن لدي فكرة أنك تعرفين أنه...!

حركت يدها من جانب إلى آخر بشكل معبر عما يدور في رأسها، وومضت عيناها الزرقاوان.. وأكملت:

- هل أخبرته بأنك لا تريدين الزواج به؟

- أجل.. أرسلت له رسالة.

- وما هو العذر الذي ذكرته؟

- قلت له إنني غير مستعدة للزواج.

- سيغضب فهو رغم خصائصه الشاذة مولع بك.

www.liilas.com

ردت حانقة: «أكره هذه الكلمة».

ـ أية كلمة؟

ـ مولع! لا أريد الرجل الذي سأتزوجه أن يكون «مولعاً» بي فقط بل.. أريد أن يحبني بشغف وتهور.

سخرت جولي برقة: يا إلهي! يا لرومانسيتك. أنت كأمك عندما كانت في مثل عمرك.

ـ أكانت هكذا؟

ـ أوه يا عزيزتي.. أجل.. لقد أملت آنابيل دوماً في مجيء فارسها ليخطفها بين ذراعيه ويطير بها إلى منزله. وبعد عدة سنوات من الانتظار، توقفت عن الحلم وقبلت بزواج يؤمن لها الاستقرار المادي الذي أمنه لها والدك.

كانت السخرية واضحة في صوت جولي، التي ضاقت عيناها وهي تتطلع إلى الحديقة، وكأنها ترى شيئاً حدث في الماضي.. ثم أضافت بحزن:

ـ لكن فارسها جاء في نهاية المطاف.. إنما متأخر جداً.

شهقت دنيس:

ـ خالتي.. أتحاولين القول إن أمي لم تحب أبي وإنها كانت تحب رجلاً آخر؟

أخذت الصورة التي رسمتها في خيالها عن أمها اللطيفة المهذبة تتحطم إلى قطع مبعثرة.

أدارت جولي رأسها إلى دنيس، ترد بصوت هادىء:

ـ حبيبتي هل انصدمت لأنك عرفت أنها لم تكن قديسة بل بشراً مثلنا؟ كانت آنابيل دافئة عطوفة، تحب أن تُحَب مثلك تماماً. ولي السنتين الأوليين من زواجها عاشت الأمرين!

ـ لكن والدي أحبها.. هو من أخبرني.

ـ ربما أحبها.. لكنه في البداية لم يكن متأكداً من مشاعرها تجاهه.

وهو على ما هو عليه شخص متكبر عنيد، حتى في حبه ثم كان يتركها بمفردها كثيراً كان مشغولاً دائماً بكسب المال. لأنه اعتقد أنها الطريقة الوحيدة التي يستطيع فيها الاحتفاظ بها لقد ظلت أمك حتى بعد ولادتك وحيدة. لم تكن تحب بيلباو أو الناس الذين كانت مضطرة لاستقبالهم. كانت تقيم أشهراً طويلة في ذلك المنزل في تلك القرية، على الساحل

قالت دنيس ببطء:

ـ حيث كان ستافرو ميكوري يزورها.

شهقت جولي: «تعرفين؟»

ـ أخبرني أبي كيف وجد ستافرو يتحدث ويضحك معها في إحدى الليالي قال إنهما كانا عاشقين. فهل هذا صحيح خالتي؟ أتعرفين الحقيقة؟

ردت الخالة بطريقة عملية واقعية

ـ لا أعرف هذا ولن يعرفه أحد أبداً ربما كانت ليوي على علم بذلك ولكنها لم تقل شيئاً ضد أخيها لقد تعرفت إليه عن طريق ليوي ذهب ستافرو يزور أخته يوماً فقدمته لآنابيل كان على ما يبدو رجلاً جذاباً، ليس فقط في مظهره، بل في طريقة تصرفه أشعر بأن آنابيل اعتادت على الإفضاء له بمشاكلها وأنها شجعته على زيارة ليوي لتراه هي!

ـ لكن، ماذا عن زوجته؟

ـ كان هو يومذاك أرملاً ولكنه كان غارقاً بالتعليم الجامعي كان يزور المنزل في مارتينيز طلباً للاسترخاء ولا شك في أنه وجد راحته هناك وإلا لما عاد.

تمتمت دنيس: «وكان أبي طوال الوقت جاهلاً بما يجري»

ـ أوه أظنه كان يشك في شيء. لذا وصل تلك الليلة على حين غرة. ومن سوء الحظ أنه ذهب في ذلك اليوم إذ كان ستافرو يودع أمك

لأنه كان مسافراً إلى فرنسا بغية الاختباء عن أعين الحرس.. هل أخبرك ديمتري ما حدث لاحقاً؟

ـ أجل.

ـ عجباً.. لماذا فعل هذا؟

ـ لقد قلق عندما عرف أنني أقمت مع أندريا ميكوري ابن ستافرو.. وظن أن أندريا يحاول الانتقام منه بمحاولة أذيتي.

تنهدت جولي:

ـ مسكين ديمتري.. كم أنبه ضميره طوال هذه السنوات على تلك الحادثة! وكم مرة عانى من نتيجة ما حصل.. فبعد الحادثة تغيرت أنابيل كثيراً إذ كانت تلومه على ما حدث لستافرو.. ولكن، كيف لابن ستافرو أن ينتقم من والدك من خلالك؟

ـ يظن أبي أن أندريا أغواني عندما أقمت معه تلك الليلة.

هزت جولي رأسها: «هكذا إذن.. وهل فعل؟»

ردت دنيس بحدة: «لا.. بالطبع لا..!»

لمعت عينا جولي بالمعرفة، وقالت بصوت منخفض:

ـ ربما.. ليس بالفعل.. لكن بالتفكير بكل تأكيد.

صاحت دنيس: «ماذا تقصدين؟»

ـ أقصد أنه أغواك بدون أن تعرفي.. لقد وقعت في حب أندريا ميكوري.. أليس كذلك؟ وقعت في الحب، بشغف وتهور.. أليس هذا ما قلتيه بنفسك؟

نظرت إلى خالتها مدهوشة، وسألت بصوت ضعيف:

ـ وكيف عرفت؟

ـ لقد كشفت نفسك عزيزتي..

لكزت الصحيفة بأصبعها: «لم أعهدك تهتمين بصفحة التحرير في صحيفة إسبانية.. أنت كأمك تميلين إلى المستحيل؟»

نهضت ثم أردفت:

ـ يجب أن أنطلق الآن. أريد أن أعرف ما ستفعلين، فإن قررت الوصول إلى القمر عوضاً عن البكاء عليه فاتركي رسالة تخبرينا فيها عن مكانك فبذلك توفرين علينا متاعب جمّة.

لم تستطع دنيس سوى الضحك على مزاح خالتها القارس، وقالت

ـ لينك لا تسافرين يا خالتي، فأنا أشعر بالملل بسبب هذه الذراع التي تحول بيني وبين ما يشغلني.. ماذا سأفعل، ماذا سأفعل؟

كانت تهمس وأمامها صورة عن المستقبل القريب، صورة عن أيام فارغة ليس فيها إلا شوقها إلى أندريا. دفنت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء.

وقفت جولي عدة لحظات تنظر إلى الشعر الذهبي وهو الشيء الوحيد الذي تراه من ابنة أختها. ثم قالت أخيراً، بطريقتها العملية الباردة وفي عينيها مشاعر قاتمة:

ـ أرى أن من الأفضل لك أن ترافقيني.. أنا واثقة أننا سنقدر على حجز مقعد آخر على الطائرة المتوجهة نحو باريس.. اسمعي.. لماذا لا تطلبين من خادمتك توضيب حقيبة ملابسك ريثما أتحدث إلى ديمتري لأرتب معه الأمور؟ أشعر بأنه سيشعر بالراحة إن علم أنك مسافرة بعيداً عن منال أندريا ميكوري.

www.liilas.com

٥ ـ العودة من القمر

وافق ديمتري بيرالتا على سفر دنيس إلى انكلترا للإقامة مع خالتها لبضعة أسابيع. رافقهما وغم تصرفه البارد تجاهها إلى المطار.

همست له دنيس وهي تودعه:

ـ لقد راسلت خوان.

هز كتفيه بلا اكتراث، ونظر إليها بمرارة:

ـ لقد انتهى الأمر إذن.. أتمنى لك وقتاً ممتعاً في انكلترا.

قالت الخالة جولي:

ـ لماذا لا تلحق بنا ديمتري. لا تبدو بصحة جيدة هذه الأيام.. أنت بحاجة إلى الراحة أيضاً.

ـ صحتي جيدة.. وليس لدي وقت للراحة. إنهم يعلنون عن رحلتكما.. فوداعاً.

كانت دنيس قلقة ومتعبة من الشجار الذي جرى بينها وبين أبيها، ولكنها سرعان ما نسيت كل شيء في منزل خالتها وزوجها في «هامبشاير».

ابنة خالتها شيلدا، شابة مرحة منطلقة تدرس الطب وهي في السنة الأخيرة ولشيلدا الكثير من الأصدقاء الذين تعرفت إليهم دنيس وأخذت تخرج معهم في الأمسيات وفي عطلات الأسبوع.. مرّ شهر حزيران الجميل، وشفيت خلاله ذراعها، وتمكنت من امتطاء الخيل ومن معاودة

لعب التنس.. راسلت أباها مرتين تدعوه للانضمام إليها، ثم تلقت على رسالتها رسالة رسمية باردة بخط السنيور الفونسو، يقول فيها إن والدها مشغول جداً وإنه لا يستطيع مغادرة بيلباو.

بذلت جهدها لئلا تفكر في أندريا ولكن ذلك كان عسيراً عليها إذ كان يقفز إلى تفكيرها في معظم الأوقات فعندما كانت ترى كاريكاتيراً في صحيفة إنكليزية كانت تتذكره فتتساءل عما إذا كان مستمراً في رسم كاريكاتيراته في إسبانيا وليلاً وهي في الفراش كانت تغمض عينيها فتراه واقفاً أمامها فيخفق قلبها حباً له.

كان قد مضى على وجودها في انكلترا أربعة أسابيع عندما وصلتها أخبار مفادها أن والدها عانى نوبة قلبية شديدة نُقِل على أثرها إلى مركز العناية الفائقة في مستشفى بيلباو. ما إن علمت بالخبر حتى سافرت إلى إسبانيا وهناك أمضت أسبوعين تتنقل ما بين المستشفى والبيت.. كان قلبها ممزقاً بالعذاب، لأن والدها فقد القدرة على النطق والحركة، وفقد القدرة على التعرف على أحد بمن فيهم هي.

كانت تطرح سؤالاً بشكل دائم:

ـ هل ستتحسن حاله؟

وكانت تتلقى الرد بأن النوبة كانت قوية، وأن لا أحد يعرف ما إذا كان سيسترد عافيته.

استعاد ببطء بعضاً من عافيته وذلك بفضل العناية الطبية التي تلقاها. وعلى الرغم من عدم قدرته على الكلام تعرف إليها وأخذ يبتسم لها كلما وصلت لتعوده. وفي أحد الأيام تمكن من الجلوس، وفي اليوم التالي، تمكن من السير بضع خطوات بمساعدة ممرضة.

بعد يومين، عانى من أزمة أخرى، أدخلته في غيبوبة.. لم يستعد بعدها وعيه.. ومات ليلاً.. بعد أربعة أيام جاء العديد من الأقارب والأصدقاء ليحضروا جنازته.

صدمها موت والدها صدمة شديدة فكادت لا تصدق أن والدها

العلي، نشاطاً والشديد الطموح قد اختطفه الموت وهو في التاسعة والأربعين. أصبحت دنيس الآن على اتصال بأشخاص لم يسبق أن التقت بهم من مديري الشركة التي كان والدها رئيس مجلس إدارتها، ومن محاسبين ومحامين كانوا يدرسون أوضاعه المالية.

بعد حضور اجتماع معهم برزت لها معلومة مذهلة، بأن والدها كان مفلساً، وأن الثروة التي يفترض أن ترثها، غير موجودة.

قالت دنيس لخالتها جولي:

ـ لماذا لم يخبرني؟.. لماذا لم يخبرني؟

ـ كان متكبراً أكثر من أن يعترف.. آه.. طالما وقف تكبره في طريقه.. ما هو الوضع بالضبط حبيبتي؟

ـ لقد خسر أموالاً كثيرة مؤخراً في استثمارات فاشلة، وبدلاً من الاقتصاد في المصاريف للتعويض عن الخسارة استمر في المقامرة والمضاربة في البورصة.

اعترضت جولي.

ـ عرفت أنه قلق من شيء ما ولكن لم يكن هناك فائدة من سؤاله.. فأنا امرأة لا تفهم بمثل هذه الأمور.

ـ غير أني لا أفهم سبب استمراره في بذل المال علي.. انظري إلى المبلغ الذي كان يعطيني إياه للسفر وشراء الملابس.. وانظري إلى هذا المنزل وإلى الخدم فيه.. خالتي.. لم يكن قادراً على دفع نفقات أي شيء إذ كان غارقاً بالديون حتى أذنيه.

تنهدت جولي «إنها المظاهر على ما أعتقد. لقد أمل أن تتزوجي رجلا ثرياً حتى يطمئن إلى مستقبلك قبل موته. أراد لك توفير الأمان في ظل رجل ثري».

نمنمت دنيس «ولكنني لا أريد ذلك الأمان.. ليتني لم أقل ما قلته له لكنني لم أكن أفهم، لم أكن أعرف.. لو تمكنا من التحادث قبل أن يموت كان موته غلطتي، أعرف هذا.. أنا من سببت له النوبة..

إنها غلطتي.. وغلطة أندريا».

ردت جولي بعنف:

ـ لا.. ليست غلطتك.. إياك والتفكير في هذه الطريقة. إن المضاربة بالبورصة عملية في غاية الخطورة، والنوبات القلبية غريبة جداً إذ لا يعرف أحد متى تحدث. ولكنني واثقة أن ما من إنسان يعاني من أزمة قلبية يموت لأن شخصاً ما قال له بضعة أشياء في ساعة غضب.. فوقفي الآن عن لوم نفسك دنيس. يجب أن تفكري في مستقبلك.

ـ أجل.. يقول المؤتمنون على الوصية إنه لو بيعت جميع أسهم أبي في الشركة فلن تفي سوى جزء منها.

نظرت جولي حولها في الصالون الأنيق:

ـ سيدر هذا المنزل عليك مبلغاً ضخماً خاصة وفيه ما فيه من لوحات وأنتيكات.

وهكذا بدأت عملية بيع جميع ممتلكات ديمتري بيرالتا الثمينة. ولم تحتفظ دنيس إلا ببعض قطع الأثاث العزيزة على قلبها. وبعد أن تمت عملية البيع عرفت من متفاي الوصية أنه لم يبق لديها ما ترثه.

تقبلت الوضع بهدوء فعلى الأقل زال أحد الفروقات القائمة بينها وبين أندريا.. كانت تفكر في الأمر وهي توضب ثيابها استعداداً للعودة إلى بريطانيا في اليوم التالي.. لم تعد فتاة ثرية.. وفي تلك اللحظة بالذات فكرت بأندريا، خاصة وهي ترى كنزته في الحقيبة التي وضبتها لها روزيتا.

رفعتها من الحقيبة، لتضع القماش الناعم على وجهها فتذكرت يوم دسها فوق رأسها في الكهف.. لو أغمضت عينيها الآن لرأت خصلات شعره الأسود تغطي جبهته ولرأت عينيه الرماديتين اللتين سخرتا منها قبل أن تسوّدهما الأحاسيس التي اعتملت في نفسيها عندما عانقها.

لقد عانقها كما يعانق الحبيب حبيبته. لقد أرادها وأرادته.. وما تزال تريده. أحبته حباً شديداً لذا لن تستطيع الرحيل عن إسبانيا قبل أن

تراه.

لم تتوقف لتفكر في صحة ما ستقوم به.. بل دفعت الكنزة إلى كيس ورقي بني، وما هي إلا لحظات حتى غادرت المنزل في سيارتها التي لم تكن قد بحث حتى الآن.

كان يوماً من أيام الصيف الجميلة فيه النهر هادىء شفاف كمرآة مصقولة.

اجتازت سيارة دنيس، رغم الازدحام، المدينة ثم اتجهت إلى التلال المليئة بالغابات وبعد ذلك توجهت مباشرة إلى الجادة البحرية. كان الخليج صفحة زرقاء نقية تمتد بعيداً حتى الأفق الضبابي الليلكي.. في الشارع الذي تعيش فيه فاليا سيموزا، كانت أشجار الكستناء تلقي ظلالاً سوداء على الجدران المحيطة بكل البيوت.

كانت أبواب منزل سيموزا مشرعة ولكنها لم تجد سيارة في الطريق الداخلية، بل بدا المنزل وكأنه مقفل مهجور. إن لم تجد أحداً فماذا تفعل؟ كيف ستجد مكان سكن أندريا؟

اضطرت إلى رن جرس الباب ثلاث مرات، وكانت ترتدّ على عقبيها ململمة أذيال الخيبة عندما انفتح الباب ببطء.. ووقفت روزيتا تنظر بعين صغيرة ناعسة.. حينما رأت دنيس اتسعت عيناها وصاحت.

- سينوريتا بيرالتا.. ماذا تفعلين هنا؟ سامحيني لأنني لم أرد على الجرس بسرعة.. كنت أنام قيلولتي.

- إذن أنا آسفة على إزعاجك.. هل الطبيبة في المنزل؟

- لا.. إنها وزوجها مسافران في عطلة.. أهناك ما أفعله من أجلك سينوريتا.

- هلاّ أخبرتني أين يقع مرسم السيد ميكوري؟ أعرف أنه في السارتينيز، إنما لست واثقة من العنوان.. أريد أن أوصل إليه شيئاً ما.

هزت روزيتا رأسها: «آه! فهمت.. لا أعرف اسم الشارع أو رقم المنزل أو اسمه ولكن لو ذهبت إلى مارتينيز وسألت مطلق إنسان هناك

لأرشدك إليه. إنها قرية صغيرة يعرف الجميع فيها بعضهم بعضاً».

ابتسمت روزيتا ملة.. وكأنها أعطت دنيس لتوها توجيهات واضحة لتجد أندريا، أردت دنيس الابتسامة.

- شكراً لك.. لقد ساعدتني كثيراً.

عادت إلى الجادة، ثم اتجهت في الاتجاه الجنوبي الغربي.. مارتينيز على الطريق الى بيرموا، لذا ليس عليها إلا السير على الطريق الساحلية حتى تصل.. وتأرجحت الطريق صعوداً ونزولاً، تتبع الخط الساحلي الصخري الوعر. كانت الطريق أحياناً تصل إلى مكان مرتفع معلق فوق المياه البيضاء البراقة وأحياناً أخرى تنخفض حتى تصبح على مستوى الخليج الهلالي الشكل حيث الأمواج الصغيرة المزدانة بالزبد.

مضى على سيرها ثلاثة أرباع الساعة عندما شاهدت سارية ذهبية مرتفعة فوق كنيسة مصممة بالقرميد الأحمر، ثم ما هي إلا دقيقة حتى رأت لوحة مدوناً عليها اسم مارتينيز. أخذت تسير في شارع ضيق يحده من جانب البحر ومن جانب آخر منازل مطلية باللون الأبيض ذات مصاريع خشبية ملونة.

رأت قوارب صيد متوقفة في الميناء، الذي انحسر عنه المد.. ورأت الصيادين يرتدون «البيريه» القبعة الباسكية ويقومون بتنظيف الطحلب من القوارب، تحضيراً لعطلاتها أو إصلاحها.

من الميناء تصاعد طريق ضيق يلتوي بين أبنية أكثر ارتفاعاً وأقل عرضاً.. وبما أن الموسم السياحي في أوجه، فقد كان الطريق يعج بسيارات متعددة الماركات وبأناس يرتدون ملابس العطلات المبهرجة الألوان ويتسكعون حول مداخل المحلات الصغيرة، يتفرجون على واجهاتها.

وجدت دنيس مكاناً صغيراً توقف فيه سيارتها، فأدخلتها بسرعة. ثم جلست في الشارع متسائلة عن أفضل مكان تفتش فيه عن أندريا. لفت انتباهها لافتة خشبية متحركة على جانب الطريق الأيمن كُتب عليها

www.liilas.com

كانت الشمس الحارة قد اخترقت قماش بلوزتها وأضفت لمعاناً شديداً على شعرها الذهبي الذي جذب اهتمام الكثير من الرجال. بدت طويلة، نحيلة وأنيقة في تنورة ضجرية تكاد تبلغ الكاحلين وخف أبيض عالي الكعبين، ونظارة سوداء، حتى أن بعض الشبان من السياح الفرنسيين الباحثين عن المرح، أخذوا يصفرون لها ويكلمونها.

كان المعرض من الداخل هادئاً وبارداً.. فيه عدة أشخاص يتأملون اللوحات المعلقة. صاحب المعرض، رجل صغير الجسم سميك بضع نظارتين كان مشغولاً في الحديث عن لوحة معينة مع رجل وامرأة على أمل أن يعقد صفقة.

تجولت دنيس في المكان تنظر إلى اللوحات.. كانت القاعة مقسومة إلى أقسام متعددة تفصلها ستائر خشبية علّقت عليها لوحات وكان كل قسم مخصص لفنان واحد.

ما إن تحركت إلى آخر قسم حتى وقفت مشدوهة أمام نفسها.. وشهقت مصدومة ولكنها أسرعت تضع يدها على فمها ونظرت إلى ما حولها لترى ما إذا كان أحدهم قد سمع شهقتها. حثت الخطى نحو اللوحة تتأملها.

لا.. لم تكن مخطئة، إنها هي.. بدا شعرها في الصورة منسدلاً ورأسها مرتداً إلى الوراء، وعيناها الزرقاوان تومضان ما بين أهداب طويلة نصف مغمضة أما شفتاها الناعمتان فكانتا منفرجتين قليلاً. كانت اللوحة من النوع الانطباعي فيها بدت بشرتها وشعرها يلمعان خلف واجهة سوداء.. تحت اللوحة بطاقة عليها اسم اللوحة ولقب الفنان.. وأسم اللوحة: «فتاة الكهف» واسم الرسام ميكوري.

تقدم أشخاص آخرون إلى القسم، فتركته مسرعة بدون أن تلقي نظرة على اللوحات الأخرى إذ كان جل ما تريد الابتعاد لئلا يدارنها أحد بالفتاة التي في اللوحة.

كان الزوجان اللذان كانا يتحدثان إلى صاحب المعرض يغادران المكان.. أما صاحب المعرض النشيط فظهر فجأة أمامها سادّاً عليها طريقها إلى الباب.

ـ سينوريتا.. هل أستطيع مساعدتك؟ أتفتشين عن لوحة؟

كانت عيناه الخبيثتان تتفرسان بها، وأدركت أنه لن يتركها تغادر المعرض بسهولة، فوضعت نظارة على أمل التنكر إلى حد ما.. وقالت ببرود:

ـ لوحة «فتاة الكهف» بريشة ميكوري.. كم ثمنها؟

ـ آه.. آسف جداً.. تلك اللوحة غير معروضة للبيع.. وهذا أمر مؤسف جداً.. لأن أناساً كثراً أبدوا إعجابهم بها وأرادوا شراءها. معظمهم من الشبان.. تفهمين هذا سينوريتا؟ إنها توافق رومانسيتهم.. فيها فتاة أحلام تعرض نفسها عليهم.

قالت بغضب: «ولكنني لا أراها هكذا! أعني، كوني امرأة لا أراها هكذا. لكن لمَ هي معروضة إذا لم تكن للبيع؟»

ـ طلبت من السيد ميكوري المزيد من اللوحات لأعلقها في قسمه مكان التي بعتها.. لقد أصبح مشهوراً جداً فلوحاته تباع كثيراً، ولكنه لا يرسم اللوحات الصغيرة بل اللوحات الكبيرة.. لقد سمح لي بعرض هذه، مع اثنتين أخريين شرط ألا أبيعها.

ـ ترى أين أجده؟ لقد أستطيع إقناعه ببيعها لي؟

ـ همم.. الآن، ربما هو في الكنيسة.

ـ الكنيسة؟

ـ سي.. لقد عُهد إليه رسم لوحات جدارية فوق سقف الكنيسة الجديدة.. لأن القديمة أتلفها نار الحريق. ولدينا الآن كنيسة جديدة، ستجذب اهتمام سكان الباسك الذين سيتوافدون لرؤيتها.. لقد ضمّت المشاهد الدينية مشاهد من تراثنا.. تعرفين بالطبع أن والد سنيور ميكوري قتل على مقربة من هنا وهو مدفون في مقابر قريتنا سينوريتا؟

تمتمت: «لا.. لا أعرف هذا».

ـ كان رجلاً عظيماً.. رجلاً كبيراً، بطلاً.

ـ لكن إن لم أجده في الكنيسة، فأين أجده؟

ـ في مرسمه.. إنه في المنزل القديم المطل على الميناء، من الجهة الشمالية.. ولكنك قد تجدين صعوبة في الدخول لرؤيته، فالشريرة العجوز، السنيورا زاره، مالكة البيت تحميه من الزوار.. ستحتاجين إلى قصة جيدة حتى تسمح لك بالمرور.

ـ شكراً لك سنيور.. لقد ساعدتني كثيراً.

ـ دي نادا سنيوريتا.. يسرني مساعدة سيدة جميلة.. وإن لم تقنعيه ببيع اللوحة فعودي والقي نظرة على اللوحات الأخرى فقد تجدين بينها ما يروق لك.

كيف يجرؤ أندريا على رسمها بهذا المظهر؟ كيف يجرؤ؟

جعلها الغضب الشديد تسير في زقاق ضيق قادها إلى بناء أبيض جديد هو للكنيسة الجديدة. لم يكن البناء منتهياً حتى الآن. في داخل الكنيسة كانت تجري مراسم من نوع ما، فقد سمعت قسيساً يرتم بصوت منخفض.. تسللت إلى المقاعد وركعت وراء الناس الراكعين وهناك أخذت تتطلع حولها بلهفة.

كان أمام أحد الجدران قوائم حديدية تصل إلى السقف، ورأت على الجدران ألواناً براقة للوحات رُسمت حديثاً ولكنها لم تجد أحداً يرسم هناك.. ظلّ رأسها محنياً وكأنها تصلي ولكنها في الواقع كانت تحاول فهم السبب الذي جعله يرسم صورتها. أتلك هي طريقته للتخلص من ذكرى ما حدث بينهما في الكهف؟ أكانت في تفكيره بمقدار ما كان في تفكيرها؟ إذا كان الأمر هكذا.. ألا يعني.. أيمكن أن يعني..؟ آه، لا فائدة من التخمين أو التحليل.. يجب أن تقابله وتسأله.

تركت برودة الكنيسة المظلمة وخرجت إلى الشمس الحارة البراقة، وسارت نحو الميناء. وهناك شمّت رائحة السمك ورأت النورس يصيح

وهو يرتفع سابحاً فوق المياه الزرقاء الشفافة أو واقفاً على أطراف قوارب الصيد.. سارت على الشاطىء باتجاه منزل أبيض كبير، يرتفع وحده على تلة صغيرة خلف المنارة التي تدل على مدخل الميناء.

كانت بوابة حديدية زرقاء ضيقة تقود إلى المنزل عبر ممر ضيق.. جلست على أحد مقاعد الحديقة امرأة متوسطة السن ذات شعر رمادي ترتدي فستاناً أسوداً، يبدو أن كل نساء الإسبان يرتدين مثله، بعد سن معينة. حينما رأت دنيس وضعت الحياكة على ركبتيها. ونظرت إليها نظرة منتقدة، وسألت بحدة:

ـ إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟

ـ جئت لأرى السيد ميكوري.. أليس هنا؟

ـ ماذا تريدين منه؟

وقفت تضع الحياكة على المقعد، ثم تقدمت نحو دنيس.

ـ أنا صديقة.

عبست المرأة: «هذا ما قالته الأخرى؟»

ـ الأخرى؟

ـ المرأة التي جاءت في السنة الماضية.. قالت إنها صديقته.. ولكنها لم تجلب إلا المشاكل وما أنت بمختلفة عنها.. ما اسمك؟

ـ دنيس بيرالتا.. لكنني لا أرى سبباً..

ارتفع حاجبا المرأة دهشة وقاطعتها:

ـ بيرالتا؟ من باع زوجي هذا المنزل كان اسمه بيرالتا.. هل أنت قريبته؟

ـ إنه والدي ديمتري بيرالتا.. كان يملك هذا المنزل قديماً..

ـ أجل، كان يملك هذا المنزل.. أنا سيرنا زاره، وزوجي بيار، طالما امتدحت السنيور بيرالتا.. فقد باعنا المنزل بثمن أقل بكثير مما دُفع له.. قال إنه يضم بين جنباته ذكريات مؤلمة.

نظرت دنيس إلى المنزل.. هنا كانت تقيم أمها. هنا أقامت هي في

طفولتها. إنه المنزل الذي كان يزوره ستافرو ميكوري ليرى أمها، ومنه، في ثورة غضب وغيرة، أرسل ديمتري بيرالتا ستافرو إلى حتفه.. إنه المنزل الذي يعيش فيه الآن ابن ستافرو.

نظرت مجدداً إلى السنيورة زاره.. لا شك أن تصرف المرأة نحوها تغير، ويجب أن تستغل هذا التغيير. قالت:

ـ سنيورة.. سرتني مقابلتك.. وأنا دهشة لأن السنيور ميكوري يسكن هنا، حيث كانت والدتي تقيم.. لم يقل لي هذا.

ردت السنيورة زاره: «له الطابق العلوي فقط.. عندما مات بيار وجدت أن المنزل كبير عليّ، فقررت أن أؤجر قسماً منه.. في ذلك الوقت كان السنيور ميكوري يبحث عن مكان يجعله مرسماً له وسكناً وكان أن توصلنا إلى اتفاق.. مقابل الإيجار الذي يدفعه أحافظ على المكان نظيفاً».

ـ سأكون شاكرة لك إن سمحت لي بالصعود لرؤيته.. لن أطيل المكوث. أحمل إليه شيئاً كما أود مناقشة أمر بيع لوحة معه.

تغضن الوجه المترهل بابتسامة، وقالت:

ـ أرى الآن أنك لست كالأخرى.. اصعدي سنيورينا.. أهلاً بك.

صعدت دنيس السلالم ببطء.. ورأسها يدور من التوقب.. ماذا سيقول أندريا عندما يراها؟ كيف سينظر إليها؟ ماذا سيقول لها؟ وماذا ستقول له؟

في مكان ما توقفها، انفتح باب ثم انغلق بشدة، تبعه بعد ذلك وقع أقدام نسائية خفيفة، كانت على درج الطابق الثاني.. رفعت دنيس رأسها فرأت امرأة نحيلة الجسم، شعرها أجعد تنزل الدرج مسرعة مترنحة.. ما إن وصلت إلى منبسط الدرج حتى توقفت الشابة لتلتقط أنفاسها وهناك شاهدت دنيس، فالتمعت عينان كبيرتان صفراوان في وجه نحيل فاتن، وقالت بغضب:

ـ إن جئت من أجل وظيفة «موديل» التي أعلن عنها هذا الأسبوع.

فأهلاً بك لها.

تجاوزتها الشابة نازلة إلى الأسفل ثم سمعتها تصيح بشيء للمرأة.. أما دنيس فتابعت ارتقاء الدرج.

لم يكن الباب المصفوق مقفلاً كما يجب.. فقد انفتح مجدداً ومن خلال فتحته الضيقة، رأت دنيس أشعة الشمس تدخل من نافذة مرتفعة. دفعت الباب بحذر تنظر إلى داخل غرفة طويلة.

لم يكن هناك سجادة على الأرض، بل ليس هناك أثاث تقريباً.. إلا إذا اعتبرنا المائدة المستديرة العتيقة، والكراسي المماثلة المدفوعة إلى جانب واحد.. أثاثاً.. كان هناك أيضاً كرسي طويل قديم الطراز مغطى بقماش مخملي أحمر، وطاولة عليها جميع أنواع وقياسات فراشي الرسم، وعلب طلاء البودرة الملونة، وعلب الطلاء الزيتي.. وهناك قماش رسم مشدود على إطارات، مجمع في إحدى الزوايا.

كان باب على الجانب الآخر من الغرفة شبه مفتوح، تمكنت من خلاله من رؤية سرير غير مرتب.. وقفت تصغي لأنها سمعت أحداً يتحرك هناك، فتنحنحت بصوت مرتفع، أملاً في جذب اهتمام من في الداخل. وعندما لم يحدث شيء، رفعت ساقها إلى الوراء وضربت الباب وراءها حتى ينغلق بشدة.

سمعت صوت أندريا غاضباً حاداً:

ـ ألم أطلب منك عدم العودة.. أنت غير نافعة كموديل.

صمت بعدما وصل إلى باب غرفة النوم، وشاهدها. وقف هناك مشدوهاً يحدق إليها وعيناه لا تصدقان أنها أمامه، ثم تمتم:

ـ انتظري لحظة.

عاد إلى غرفة النوم وأغلق الباب وراءه.

لقد أطلقت هذه اللمحة القصيرة عنان قلب دنيس، تقدمت إلى الحمالة لتدرس اللوحة في محاولة منها لتهدئة نفسها. من وجهة نظرها، كانت اللوحة مجرد تلطيخ ألوان لا اتقان فيها، لم تفهم ماذا يجب أن

تعني. أخذت تتساءل كيف أملت يوماً أن تكون قريبة من أندريا وهي لا تفهم فنه. انفتح الباب مرة أخرى وخرج.

لم يقترب كثيراً. كان يرتدي جينزاً ذا حزام عريض وتي شيرت ضيق بلا أكمام على طراز القميص الداخلي. يحيط بأطراف أكمامه وياقته شريط أسود، يجذب الاهتمام إلى عضلات ساعديه السمراء. استند إلى إطار الباب عاقداً ذراعيه البنيتين على صدره.. وقال ببرود:

ـ ماذا تريدين؟ لماذا جئت إلى هنا؟ لتكوني مصدر إزعاج؟

أطلق تصرفه العدائي شرارة غضبها.. فتقدمت إليه، ورمت الكيس الورقي عند أقدامه.. وصاحت:

ـ جئت أرد لك هذه.. كنزتك.. بما أنك رجل فقير فقد تحتاج إليها عندما يبرد الطقس.

نظر إليها بعينين رماديتين فارغتين ثم رد بدون أن تتحرك له عضلة.

ـ شكراً لك.. أهذا كل شيء؟

أردفت بصوت غاضب:

ـ لا.. هذا ليس كل شيء.. رأيت اليوم لوحة لك في معرض للفنون هنا.. إنها لوحة لي.. وأريد شراءها.

ـ لماذا؟

ـ لأدمرها.. كيف تجرؤ على رسمي وأنا على تلك الحال، ثم تضع اللوحة ليراها العالم أجمع.

رد بفظاظة: «يستحيل أن يأتي العالم أجمع إلى معرض صغير في قرية باسكية صغيرة لينظر إلى لوحاتي.. ولن يعرف العالم أجمع أنها أنت.. إنها ليست للبيع، فإن جئت من أجل اللوحة فارحلي.. يوناياس ناردس سيوريتا.. الباب هناك، لكن أرجو ألا تصفقيه بعجلة أثناء خروجك».

انحنى يلتقط الكيس عن الأرض، لكن دنيس لم تتحرك بل لم تستطع الحراك. كانت مسمرة مكانها يغمرها إحساس بالإحباط شديد.

عندما استقام، كانت ما تزال جامدة.. فتلاقت عيونهما. بدا أن كليهما عاجز عن سحب عينيه.

همست: «مات أبي!»

رد بصوت منخفض:

ـ أعرف.. وأنا آسف.

ـ كان مفلساً....

ـ وأعرف هذا أيضاً.. ألهذا جئت إلى هنا؟ أتبحثين عن مكان تقيمين وتأكلين فيه مجاناً لأنه تركك بلا مال؟

قطعت السخرية ضباب الخيبة.. وثار سخط دنيس للمعاني الكامنة وراء الكلمات.. فوجهت قدمها إلى ساقه، وطارت يدها إلى وجهه ولكنه أمسك يدها بسرعة، ولوى ذراعها وراء ظهرها. كان الألم شديداً، لكنها لم تصرخ.. قربتهما حركته من بعضهما بعضاً، فأصبحا ملتصقين يحدق كل منهما إلى الآخر بغضب.

قالت: «أنت وحش.. وحش قاس!»

سألها ببرود: «لماذا؟ ألأنني أحاول الدفاع عن نفسي ضد مخالبك الحادة.. لا أريد أن أخسر عيناً».

حاولت التحرر من قبضته ولكن مقاومتها ألصقتهما ببعضهما بعضاً فأكثر. كانت مقطوعة الأنفاس، مشعثة، شعرها الكثيف المتموج يلتف حول وجنتيها المتوردتين.

نظرت إليه ثانية، وسألته:

ـ لماذا لا تريد بيع صورتي؟ لماذا تريدها؟

أرخى قبضته القاسية المؤلمة عن ذراعها، ومد ذراعه يشبك أصابعه بأصابعها بشكل حميم ثم قال:

ـ حتى تذكرني دوماً بفتاة جميلة التقيتها يوماً في كهف.

واسودت عيناه بين أهدابه الكثيفة السوداء، لتستقر نظرته الكسولة على وجهها. همست:

اتركني.. أندريا.

أثر الالتصاق فيها كثيراً والآن من مقاومتها له.. ولكن صوتها كان ينقصه الإقناع، فهي لا تريد منه حقاً أن يتركها.. بل أرادت أن تحس بقوة ساعديه حولها، وأن تدس أصابعها في شعره الحريري. أن تدفن وجهها في دفء عنقه النابض..

قال لها بعذوبة:

- لا أريد أن أتركك، وقد أصبحنا بهذا القرب مجدداً.

تهدج صوته واخشوشن من العاطفة، ثم استند إلى الجدار يسحبها معه ويضمها بين ذراعيه القويتين. استطاع بذراع واحدة حول خصرها أن يبقيها حيث هي. ثم تمتم بصوت أجش:

- ليتك تعرفين فقط كم اشتقت إليك نينا!

تنهدت مبتهجة: «وأنا اشتقت إليك أيضاً».

دست يديها تحت كتفيه تحضنه بقوة وشغف، ثم رفعت رأسها نحوه.. لكنه لم يقبلها، بل نظر إليها نظرة حارقة.. وهمس:

- أخذت وقتي لأرتب السرير.

ولكنه أردف:

- لا أريد أن ترحلي قبل أن تحصلي على ما جئت من أجله.

في قوله شيء خاطئ، ولكنها لم تستطع التفكير ما هو، لأنها ابتعدت كل البعد عن التفكير المنطقي وسحرها ما تشعر به نابضاً في شرايين جسدها.. يجب عليها أن تسأله ما يعني، ولكنها عندما فتحت فمها عادت لتصمت لأنه سلبها كل قدرة على المقاومة.. حينما رفعها بسهولة بين يديه، وأدخلها إلى غرفة النوم، يقفل الباب بقدمه، لم تقاوم بل استسلمت إلى مشاعرها النابعة من الحب الذي يستحوذ على كيانها.

كانت تلك الغرفة دافئة، تدخل إليها حرارة الشمس ولكنها كذلك كانت هادئة ساكنة.. همس أندريا لها بصوت أجش:

- ديوس، يا إلهي ما أجملك! أنت أجمل بكثير مما تصورت..

www.liilas.com

شعرك بلون الذهب وبشرتك بلون النار.. لم أرك بوضوح في الكهف. لذا كان عليّ أن أتخيل مدى جمالك.. تلك اللوحة ليست سوى انطباعي عنك ولكنها لاتقارن بالحقيقة.

تمتمت اسمه مرفقة بكلمات حب لم تستخدمها قط من قبل. وانجرفت أمام عاصفة الشوق التي هبت بينهما بسرعة، أبعد من أي تعقل واعترفت له بحبها بهمس أجش، على دفء عنقه.

لهذا جاءت.. وهنا تريد أن تكون.. كانت تشتعل حباً له فما يشعران به هو الحقيقة. إن ما يهمها الآن هو وجودهما معاً.

همس بإثارة على عنقها:

- طالما تمنيت أن نكون معاً وحدنا.

- وأنا كذلك.

- أواثقة أنك تريدينني؟

في السؤال إصرار غريب، دفعها إلى فتح عينيها وإلى النظر في وجهه.. كان حاجباه معقودين وفمه ساخراً.. فأدركت فجأة أنه غير واثق منها.. عندئذ تاقت إلى وضع حد لتردده بالتأكيد له أن حبه هو ما تريده.

همست: «أجل.. أريدك أندريا.. لهذا جئت لأراك اليوم. لم أستطع مغادرة إسبانيا بدون أن أراك وبدون..».

- بدون أن تعطيني ما هو أكثر من لوحة تذكرني بك. إنه لإطراء عظيم.

كاد صوته يكون مختنقاً بالخشونة، وبالشعر الكثيف الذي دفن فيه وجهه.

سألت بقلق مرة أخرى: «ماذا تعني؟»

أدركت أن هناك ما هو غير صحيح بطريقة ما، وأن هناك حواجز ما زالت قائمة بينهما.. حواجز لا تراها.

تمتم: «لا يهم.. سنأخذ معاً ما نريده اليوم، ثم نفترق.. هه؟»

أعاد الصوت البارد الواضح المنطق مجدداً إلى رأسها، فتشنج جسمها وكأنما استوى عليه جليد مفاجىء.. إن أندريا لا يحبها كما تحبه.. فما زال يراها كما كان يراها في الكهف.. فتاة مجنونة ثربة تجري وراء الرجال.. تريد الحصول على ما تريد، ولقد اختارته لمغامرتها الأولى.

شعرت بإحباط مفاجىء وبخيبة أمل مريرة، وبغضب شديد ضربته بقبضتيها فحطمت الضربة على أنفه.. شهق من الألم، وابتعد عنها.. أما هي فأمسكت بتلابيب ثيابها وهرعت من الغرفة إلى الممرسم في الخارج صافقة باب غرفة النوم خلفها.. سوّت ثيابها وارتدت خفها ثم أمسكت حقيبة يدها، وتوجهت إلى الباب.. انفتح باب غرفة النوم من ورائها وسمعته يقول بلهفة وبأنفاس مقطوعة:

ـ دنيس.. انتظري..

ولكنها لم تسمع تتمة الجملة إذ أقفلت الباب وراءها. نزلت الدرجات بسرعة متهورة كما فعلت تلك الفتاة، وأحست للحظة بالشفقة عليها.. وقفت في منبسط الدرج ثم نزلت ما تبقى منه ببطء أكثر لأنها تعلم أن سيرنا زاره، سيكون عند الباب الأمامي، تنتظر وترقب. وفيما هي نازلة أرهفت السمع أملاً في سماع صوت باب الممرسم ينفتح وينغلق يتبعه وقع أقدام أندريا.. سيلحق بها بكل تأكيد؟ فلا شك في أنه يريد مغرفة سبب ضربها له.. وعندئذ ستتلذذ في ذكر السبب.. ستقول له إنه مغرور لأنه ظن أنها جاءت من أجل ما يفكر فيه ولأنه تجرأ على الاعتقاد أنها جاءت فقط من أجل وداع جسدي قبل الرحيل.

لكنها لم تسمع وقع أقدام على السلم الخشبي خلفها فكان أن أكملت المسير إلى الشمس على الجدران البيضاء. آذى التوهج عينيها المغرورقتين بالدموع والإحباط.. فسارعت إلى وضع نظارتها.

سألتها السنيورة زاره: «هل رأيت السيد ميكوري؟»

كانت جالسة على المقعد في الظل، فردت دنيس:

ـ سي.. رأيته.. شكراً لك. بوناس دياس، سنيورة.

ـ بوناس دياس سنيورينا.. كان من دواعي سروري مقابلتك.. أرجو أن تعودي مجدداً.

أبداً.. أبداً.. لن تأتي مرة أخرى إلى هذه الجهة.. واستقام ظهر دنيس وهي تقسم، قبل أن تخرج من البوابة الزرقاء شامخة الرأس. أبداً.. أبداً.. لن تسمح لرجل بالاقتراب منها، ولن تستسلم أبداً لعناق رجل كما استسلمت لعناق أندريا.. ولن تقول لرجل أبداً إنها تحبه.. فالحب ليس سوى خداع للنفس.

ما إن وصلت إلى الشارع الرئيسي في القرية، حتى شعرت بالحرارة وبانقطاع أنفاسها من السير بسرعة.. في مقهى جانبي صغير جلست إلى طاولة مستديرة زجاجية السطح، وطلبت الليموناضة الباردة التي راحت تحتسيها وهي تراقب الناس يمرون بها. أملت طوال الوقت أن يظهر أندريا، لكنه لم يظهر، فأخذت تحدق ببؤس أمامها.

ما كان عليها المجيء إلى هنا.. ما كان عليها الاستسلام إلى هذا التهور. كان عليها أن تطيع ما تمليه عليها كبرياؤها. كان عليها أن ترسل الكنزة بالبريد.. ما كان يجب أن تحاول الوصول إلى القمر، لأن هذا القمر ليس لها.

مع ذلك صدقت في لحظات مجنونة أن أندريا يحبها، وأنه يشعر بما تشعر به. وهناك أدلة على ذلك. هناك الطريقة التي ومضت فيها عيناه عندما رآها واقفة في مرسمه. ذلك الوميض المليء بالفرح وعدم التصديق. وهناك الطريقة التي اقترب فيها منها، فمن الرفض القاسي إلى الشوق العاصف الحنون وهناك اعترافه بأنه اشتاق إليها في الأسابيع التي افترقا بها.. وفوق كل هذا، كان هناك الطريقة التي عانقها فيها بلطف يصل إلى حد العبادة.. منتمماً بكلمات الإعجاب بشعرها الذهبي وبشرتها الغضة الرقيقة. إن تصرفاته كلها تصرفات رجل محب لا تصرفات رجل يريد أن يأخذ ويسلب، قبل أن يرمي بعيداً البقايا.

إذن.. لماذا قال تلك الملاحظات الساخرة؟ لماذا استخف بحبها والمح إلى أن هذا الحب بالنسبة لهما ليس سوى علاقة عابرة مشبوبة. حاولت إيجاد الردود على أسئلتها. عندما جاء الساقي ليسألها إن كانت تريد شيئاً تأكله أو تشربه رفضت بلطف ثم سددت ثمن الليمونادة وانطلقت إلى الشارع حيث ركبت سيارتها.

كانت الشمس تنساب نحو الأفق البعيد ملقية أشعتها الذهبية الخفيفة على اليابسة والبحر. في هذا الوقت كانت دنيس تقود سيارتها حول الميناء على الطريق الساحلية باتجاه بيرميو.. لقد أصبح مسكن أندريا الذي فيه التقى يوماً أمها وأبوه مجرد أنوار منعكسة على سطوح التلة الخضراء.. ظنت أنها ترى شخصاً يسير على طول الطريق من المنزل إلى القرية. ثم اختفى الميناء وتوارى عن ناظريها فلك أنها انعطفت بالسيارة نحو طريق فرعية مبتعدة بذلك عن البحر.

وصلت إلى بيرميو، بلدة صيد جميلة منازلها القرميدية منتشرة فوق سفوح مرتفع صخري حاد.. في ميناثها أسطول صيد صغير براق الألوان مصطف بشكل أنيق إلى جانب رصيف الميناء. أصبحت الشمس قرصاً قرمزياً معلقاً في الأفق فوق البحر فتناقض لونها مع لون السماء الزرقاء. وكانت اليابسة مظلمة، وعرة، والطريق تستدير أكثر فأكثر نحو الداخل، حيث الظلام والأشباح.

غداً ستترك إسبانيا إلى الأبد.. ستسافر إلى انكلترا، حيث ستجد بمساعدة خالتها وتشجيعها نوعاً من التدريب على عمل ما.. إنها تفكر في استخدام مقدرتها في التحدث بثلاث لغات.. في لندن كلية تدرب من لديهم لغتين أو ثلاث على الترجمة أو على السكرتارية لشركات عالمية. ولا شك في أن هذا النوع من التدريب سيجعلها تجد وظائف مهمة فيها فرص السفر حول العالم.

أجل. إن الرد على هذا الإحساس والكآبة والتعاسة بسبب حب رجل لا يهتم بها، ولا يرى فيها إلا هدفاً لرغبته، هو إيجاد ما يبعدها عنه

وعن أية علاقة به.. ستتمكن من العيش بدونه.. فليست المرأة بحاجة إلى رجل حولها لتستمتع بحياتها. أما القلوب المحطمة فسرعان ما تشفى، كما تشفى العظام. فما هي إلا أسابيع عدة حتى تعود إلى حالتها الطبيعية وستنسى أندريا.

كانت تقود وهي تفكر ببطء شديد وراء عربة مزرعة يجرها حمار، وتتأرجح بطريقة خرقاء.. نظرت إلى المرآة الخلفية فرأت أنوار سيارة صغيرة قادمة خلفها.. فأشارت لها أنها ستتحرك إلى الأمام، وأطلقت الزمور لتحذر سائق الحمار، ثم داست على دواسة السرعة.

سمعت صوت زمور السيارة خلفها يطلق محذراً.. ولكن الإنذار جاء متأخراً إذ شاهدت الطريق أمامها ترتفع نحو قمة التل، حيث تتحدر منها أنوار سيارة قادمة في الاتجاه المعاكس.. تأخرت أيضاً في شدّ المكابح فغيرت وجهة المقود علّها تعود إلى ما وراء العربة فكان أن صدمت السيارة القادمة مقدمة سيارتها وانقلبت المرسيدس على جانبها، ثم على سقفها، ثم انقلبت مرة أخرى إلى جانبها الآخر، ظلت تتحدر وتنحدر إلى خندق.. أحست دنيس بأن المقود يضغط على ضلوعها.. وأن جبينها قد اصطدم بالزجاج الأمامي ثم فجأة أسودّ كل شيء من حولها.

٦ ـ أكرهك لأنني أحبك!

مر وقت أحست فيه دنيس بألم شديد سمعت فيه أصواتاً تتحدث بلهجة بالإسبانية وعرفت أن شخصاً يحاول سحبها من السيارة.. لم تأكدت من أنها تسمع صوت أندريا الأجش القلق ولكن عندما فتحت عينيها، وحاولت رؤية ما إذا كان هناك يهرتها الأضواء المسلّطة على السطرة، فأغمضت عينيها مجدداً بسرعة.

قال صوت حازم متسلط: «ما زالت على قيد الحياة. لقد فتحت عينيها».

ـ الحمد لله!

هذا صوت أندريا مجدداً. ولكن كيف لأندريا أن يكون هنا؟ لقد تركته في مرسمه في المنزل القديم. ولم يلحق بها بل لم يهتم حتى باللحاق بها. لا ريب أنها تتخيل أنه هنا لأنها تريده أن يكون.

عاد الصوت المتسلط للبروز:

ـ سنيوريتا.. أتسمعينني؟ هزي رأسك إن استطعت.

هزت رأسها. فقال صاحب الصوت:

ـ برنيو.. أنت عالقة خلف المقود ولكننا سنحاول إخراجك.. أنا طبيب، وسأعطيك مخدراً لئلا تشعري بألم كبير.. هل أنت مستعدة؟

حاولت دنيس أن تقول شيئاً رداً عليه، لكنها أحست بوخز الإبرة الحاد التي تلاشى بعدها كل شيء آخر حتى خرجت من الضباب المظلم

لتجد أنها مستلقية على فراش قاسٍ جداً. عرفت، من رائحة المطهرات أنها في مستشفى، وفتحت عينيها بحذر لئلا تبهرها الأنوار الشديدة مجدداً. رأت من بين أهدابها أن الأنوار غير قوية أو مباشرة بل هي موزعة بشكل جيد، ففتحت عينيها بسرعة.

كانت بمفردها في غرفة صغيرة، كتلك التي كان فيها والدها. استطاعت أن تعرف أن الوقت ليل، فالستائر الخضراء ما تزال مسدلة.. أدارت رأسها فرأت شخصاً يجلس قربها.. ومض النور الضئيل فوق شعر أشقر شاحب، تحت قبعة سوداء أنيقة.. وهمست:

ـ خالتي جولي.. كيف جئت إلى هنا؟

استدارت القبعة.. وبرقت العينان الزرقاوان الشابتان في وجه كهل شاب هادىء الزينة..

سألت جولي:

ـ أخيراً حبيبتي! كيف تشعرين؟

كانت تحس بألم مزعج في ضلوعها، ووجهها، رفعت يداً إليه تتحسسه.. فأمسكت جولي الأصابع وقالت بهدوء:

ـ أنت مصابة بخدوش وكدمات في وجهك.. إنما لا شيء في إصابتك خطر.. الحمد لله.. ستزول مع الوقت.

مدت دنيس يدها إلى مكان الألم في صدرها:

ـ وهنا؟

ـ ضلع مرضوض.. هذا كل شيء. يقول الطبيب إنك كنت محظوظة نظراً لما حدث.. إنما ماذا كنت تفعلين هنا حبيبتي؟ أين كنت؟

تغضن جبين دنيس وراحت تحاول تذكر المكان الذي كانت فيه قبل تحطم السيارة..

تنهدت وأجفانها تثقل من جديد. أظنني حاولت الوصول إلى القصر.. ولكنه لم يكن هناك.. ولا شك أنني سقطت.

www.liilas.com

قالت جولي بصوت لطيف: «إذن اغمضي عينيك، وحاولي النوم».

هزت دنيس رأسها، مسرورة بالنصيحة، وأغمضت عينيها.

قال لها الطبيب الذي عادها في اليوم التالي إنها لو نفذت ما يقال لها ولاذت إلى الراحة لتمكنت في غضون أسبوع من التنفس والكلام بدون أن يؤلمها ضلعها المصاب.. وبعد ذلك سيفكرون في السماح بمغادرة المستشفى.. وعلى هذا الأساس تدبرت الخالة جولي أمر إقامتها في بيلباو حتى تزور المستشفى يومياً.. تعلم أن خالتها لا تقود سيارة، فهي مضطرة إلى التنقل إما بوسيلة نقل عامة أو بالتاكسي ولهذا قالت لها في اليوم الثالث:

ـ لا بد أنك مللت مني.. لماذا لا تعودين إلى انكلترا؟

ـ لأنني أريد التأكد من سلامتك قبل ذلك، ولأن من الأفضل أن نسافر معاً كما خططنا.. ستشعرين بالاضطراب والدوار عندما تتركين المستشفى، وستحتاجين إلى مرافقة في رحلتك إلى لندن.. لذا سأبقى هنا حتى يقول الطبيب إن بإمكانك الخروج.

ـ لكن كان المفروض أن تترك المنزل منذ ثلاثة أيام. أما زلت تقيمين هناك؟

ـ لا.. بل أقيم في فندق في المدينة.. لا تقلقي، فأنا مستريحة جداً هناك. كل قطع الأثاث التي اخترتها، موضبة لتشحن بحراً إلى انكلترا ولديّ في غرفتي في الفندق ما تريدين من ثياب.

ـ أنت تتكبدين المشقة في التنقل إلى هنا يومياً.. هل تستقلين التاكسي؟

نظرت جولي إليها نظرة غريبة قبل أن ترد:

ـ لا.. ثمة شاب يقلني بسيارته إلى المستشفى.. وهو يود أن يراك.. لقد وعدته بأن أسألك ما إذا كنت راغبة في زائر آخر.

شهقت دنيس وهي تضع يدها على صدرها:

ـ شاب؟ ليس.. ليس خوان؟

قالت جولي وفي عينيها الزرقاوين تشدد:

ـ لا.. ليس خوان.. إنه شخص رأيته مؤخراً.

شهقت من جديد: أندريا؟

ـ أجل.

ـ لكن.. كيف.. ماذا يفعل في بيلباو؟

ـ لقد شاهد الحادثة حبيبتي.. إذ كان قد لحق بك من مارتينيز ولكنه لم يصل إليك حتى تجاوزت بلدة بيرميو.. شاهدك تتجاوزين عربة الحمار، فأطلق الزمور ليحذرك من السيارة القادمة.

إذن، لم تتخيل صوت أندريا.. كان هناك.. لماذا لحق بها؟ ماذا أراد منها؟ عاد ما جرى بينهما في المرسم إلى تفكيرها حياً فشعرت بالغضب والإحباط الذي شعرت به وقتذاك. أشاحت برأسها عن خالتها متأوهة تهمس:

ـ لا أريد رؤيته.. قولي له أن يبتعد.. أن يعود إلى مارتينيز.. لا أريد رؤيته مرة أخرى.. بل لا أريد رؤيته أبداً.

ـ هل أنت واثقة حبيبتي؟

لم تُظهر جولي استغراباً، لا برنة صوتها البارد ولا برفة عين..

ردت دنيس بحزم: «أجل.. كل الثقة».

وقفت جولي ثم انحنت تقبلها:

ـ حسن جداً.. سأقول له إنك لا تشعرين برغبة في استقبال الزوار، وأنك سيفهم.. أراك غداً.

مرت ثلاثة أيام أخرى تمكنت خلالها دنيس بسبب تنفيذ أوامر الطبيب والممرضات، وعدم التفكير في أندريا قدر المستطاع من التقدم صحياً فكان أن وافق الطبيب المسؤول على أن تغادر المستشفى.. شرط ألا تقوم بنشاط عنيف في الأسابيع التالية.. وما إن وصلت جولي في زيارتها اليومية حتى أبلغتها النبأ.. فقالت جولي بطريقتها العملية:

ـ عظيم.. سأعود إلى الفندق لأحضر لك بعض الثياب التي

سأتركها لك هنا حتى تكوني جاهزة مستعدة للخروج حوالي العاشرة والنصف صباحاً.

- أيمكننا أن نسافر إلى انكلترا غداً.

- أجل .. بالطبع .. لقد حجزت مقعدين على الطائرة.. نستطيع التوجه مباشرة من المستشفى إلى المطار إن أحببت ذلك.

- أجل .. سأحب ذلك. أريد مغادرة إسبانيا في أسرع وقت ممكن.

لكنها لم تنم كثيراً تلك الليلة، لأنها ظلت تفكر في اليوم التالي وما سيحمل معه، فغداً تغادر أسبانيا إلى الأبد.. إنما يتركها هذا البلد الساحر، البلد الذي ولدت فيه، ستترك بعضاً من نفسها فيه. هنا، أمضت أجمل أيام طفولتها.. وهنا عاشت في السنوات الأخيرة مع والدها الذي لم تعرف عنه الكثير والذي تصادمت معه كثيراً.. وهنا كذلك التقت بأندريا وكان لقاء عاصفاً مشوب مع غريب أحست أنها تعرفه منذ الأزل.

أدارت رأسها فوق الوسادة متأوهة، وتسللت الدموع بصمت على وجنتيها.. واستسلمت لما حاولت في الأيام الأخيرة ألا تفعله. تركت أندريا يعود إلى أفكارها، وبما أنه الآن هناك، يسيطر على أفكارها تمنت لو أنها لم تقل لخالتها جولي أن تقول له إنها لا تريد رؤيته مجدداً.. لأنها تريد أن تراه.. تريد أن تساله لماذا لحق بها.. تريد أن تكون معه، أن تراه، أن تشعر به.. آه! يا الله! كيف لها أن تنساه يوماً؟

في الصباح التالي كانت متعبة محبطة، بعد ليلة لم تذق فيها تقريباً طعم النوم.. ارتدت دنيس الفستان الجميل الطويل الرمادي والأزرق، وانتعلت في قدميها خفاً أسود عالي الكعبين. وبعد ذلك ودعت الممرضات، ثم سارت ببطء ترافقها ممرضة نحو المصعد ومنه إلى الطابق الأرضي.

تسللت الشمس من زجاج الباب وانعكست أشعتها فوق الموزاييك. كان بعض الناس منتظرين هناك في غرفة الانتظار الزاهية ولكن ما من

أحد منهم كان الخالة جولي.. أوشكت دنيس على القول للممرضة إن لا أحد هنا بانتظارها عندما نهض شخص ودنا منها.

كان عريض المنكبين نحيل الخصر أسود الشعر، الشعر الذي تدلت منه خصلات إلى جبينه قرب أهداب سوداء. أما عيناه فكانتا زرقاوين رماديتين مضببتين بشكل أبعد عن فكه النحيل الطويل مظهر الكآبة والقسوة. كان يرتدي سروالاً قطنياً أبيض وقميصاً كحلياً.

نظرت دنيس إلى ما حولها في البهو علها ترى الخالة جولي.. ثم نظرت إليه مجدداً وهو يدنو منها.. فسألته ببرود، مع أن قلبها كان يخفق بعنف: «لمَ أنت هنا؟»

رد ببساطة: «جئت من أجلك، هل أنت مستعدة للخروج الآن؟»

قبل أن ترد، ودعتها الممرضة متمنية لها الصحة والعافية ثم قفلت راجعة إلى الداخل.. التقط أندريا حقيبتها وقال مكرراً:

- هل أنت على استعداد للخروج؟

رفعت رأسها بتحد: «نعم إنما ليس معك! أين خالتي؟»

- أظنها الآن في الطريق إلى لندن.. فقد رحلت باكراً هذا الصباح، أرسلتها بنفسي إلى المطار.

صاحت مذعورة: «رحلت بدوني؟»

- سي.

- ولكن.. لماذا؟

هز كتفيه بعدم اكتراث: «لا أدري السبب.. فهل نخرج الآن إلى السيارة؟»

وضع يده بعفوية تحت مرفقها ليقودها نحو الباب:

- طلبت مني المجيء لاصطحابك من المستشفى، إلى حيث تريدين.

- لكنني قلت لها أن تقول لك إنني لا أريد رؤيتك ثانية.. ألم تقل لك هذا؟

رد عليها برصانة:

- سي. قالت لي. وقد تحدثنا مطوّلاً عنك. إنها امرأة حكيمة.. أحببتها كثيراً. لديها ما نسميه في إسبانيا «غراسيا» أي السحر والشجاعة، والشخصية التي تتسم بهدوء أمام كل «سخافات العالم» بما فيها سخافاتك وسخافاتي. والآن هل سترافقينني إلى السيارة؟

نظرت نظرة بائسة في بهو المستشفى قبل أن تبدأ السير باتجاه نحو الباب. ولكنها خارج الأبواب المتحركة، وقفت.. فاستدار أندريا إليها، ليقفا وجهاً لوجه على أعلى الدرج القصير.

سألته. «سيارة من؟»

تفرس في وجهها بحدة:

- سيارة صديق استقرضتها منه لألحق بك عندما تركت مارتينيز.

ترك ذراعها، ورفع أصبعه يلمس علامة على خدها وقال بحنوية:

- ستزول هذه بسرعة كويريدا. بعدها ستعودين جميلة كما كنت. آه. يا إلهي! عندما شاهدت كيف كان وجهك حينما رفعناك من السيارة، كدت أبكي. خفت كثيراً وخشيت أن تكوني مصابة إصابات خطرة، بل أكثر ما خشيته أن تموتي بسبب غلطة ارتكبتها أنا.

نظرت إليه حائرة، كانت تدرك أن الناس ينزلون ويصعدون الدرج، أو يخرجون من الباب، وأن الشمس تطل مشرقة من سماء صافية زرقاء لا غيمة فيها، مرسلة أشعتها المتعددة الألوان إلى «الكروم» الذي يزيّن السيارات الواقفة والمغادرة والمتوقفة..

قالت معترضة: «لكنها لم تكن غلطتك، بل غلطتي أنا.. لم أكن أفكر في ما أفعل وارتكبت الغلطة».

- لولا كلماتي التي كدرتك، لما ضربتني وهربت.

- لكنني لم أكن.. أتظن أنني مثلها؟

- مثل من؟

- مثل تلك المرأة الأميركية التي جاءت تطلب رؤيتك في السنة

الماضية ثم وجدت غرقى فيما بعد.. حسناً.. أنا لست مثلها أنا نفسي.. وأنا.. أنا لا أقوم.. أقوم بأشياء سخيفة مثل مثل الوقوع في حب رجل ساخر قاسي الفؤاد مثلك

كانت مصممة على الابتعاد عنه فارتدت بسرعة واتجهت نحو الدرج. ناسية أن الطبيب قال لها إن عليها أن تأخذ الأمور بروية لفترة ما.. إذ سرعان ما انهارت الدرجات البيضاء بشكل مخيف أمامها، وكادت تفقد توازنها وتقع فوقها.

لحق بها أندريا يسأل بصوت أجش غاضب: «من أخبرك عن إرنا؟» أمسك بذراعها بقسوة ولكنه أضاف:

- بومبو.. هل سيغمى عليك؟

تغير صوته من التعجرف الشديد إلى القلق العميق، وضع الحقيبة ليلف كلتا ذراعيه حولها.. ولكنها ردت بجفاء:

- لا.. لا.. لا أظن هذا.. شكراً لك.

ودفعته عنها ولكنها فشلت في الخلاص منه. فأردفت: «أنا ضعيفة قليلاً، على ما أعتقد. ولم أعتد حتى الآن على الوقوف كثيراً».

أخذ يشتم ويلعن نفسه بالغبي، ثم حملها بين ذراعيه قاطعاً الدرجات.. فقالت بلهجة آمرة:

- أندريا.. أرجوك، أنزلني.. أنا على ما يرام.. أستطيع السير

رد بصوت متعجرف: «اهدئي واصمتي.. أنت تتكلمين كثيراً بل كلانا يتكلم كثيراً.. لولا الكلام لما..»

قاطعته وهو يصل إلى أسفل الدرج حيث وضعها أرضاً:

- الحمد لله أنك تكلمت فلولا ذلك لما اكتشفت أن تصرفك نحوي لم يتغير.. والآن، هلا جلبت لي حقيبتي ثم طلبت لي سيارة أجرة؟ أريد الذهاب إلى المطار.

- سأحضر حقيبتك إنما لن أطلب سيارة أجرة، بل سأفعل ما وعدت به خالتك باصطحابك إلى حيث تريدين.

www.liilas.com

اجتاز الدرجات بخطوة واحدة ولكن دنيس لم تنتظر، بل أسرعت تبتعد ما وسعها إلى ذلك سبيلاً. كان كل شيء أمامها ما يزال يترنح قليلاً.. ولكنها وصلت أخيراً إلى عواميد البوابة. هناك ترددت، فنظرت إلى الشارع المزدحم المحاط بالأشجار. في مكان غير بعيد عنها، موقف باصات، وصف من الناس المنتظرين. وفي مكان آخر أبعد قليلاً استطاعت تمييز شكل باص يتقدم نحوها.

ستستقل الباص.. ولا يهم إلى أين سيوصلها.. لديها من المال الكثير في حقيبتها. لقد أعطتها الخالة جولي ما يكفي.. وبعد ذلك ستستقل باصاً آخر، أو سيارة أجرة بل ستستقل أي شيء يجنبها الذهاب مع أندريا.

توقفت وراءها سيارة صغيرة عند أبواب المستشفى كانت إطاراتها تصدر صريراً على الطريق. عرفت من في السيارة فلم تنظر خلفها، بل حثت الخطى نحو موقف الباص.. بعد لحظات، علقت ذراعها بيد تشدها بقسوة ثم دارت في مكانها لتواجه أندريا المشتعل العينين.. وصاح بها: «لم ألتق قط بمن هو عنيد مثلك!»

شدت ساقيها بقوة في محاولة لجذب ذراعها منه:

- لن أذهب معك! أكرهك!

- وإن يكن؟ فأنا أكرهك كذلك!

- دعني أذهب!

- لا

- ولماذا؟

ارتسم نفاد الصبر على وجهه:

- لأني.. آه.. يا للجحيم..!

صمت قليلاً ثم مال نحوها بصوت لئلا يكون لديها شك في ما تسمعه

- لأني أحبك!

- لكنك قلت لتوك.. أندريا.. أنت غير منطقي.

- ومن قال إن هناك شيئاً منطقياً في الحب؟ أكرهك وأحبك. إن الإحساس جزء من الشعور المجنون ذاته. أكرهك لأنني أحبك.. والآن، هل سترافقينني.. أرجوك!

كان يصيح بها حتى يجعلها تسمع صوته فوق صوت زحام السيارات، أدركت أن الناس ينظرون إليهما بفضول فمنهم من ينظر بذهول، ومنهم من يضحك متسلياً بما يرى. على مدخل المستشفى كانت سيارة خضراء صغيرة ذات باب واحد مفتوح تسد الطريق على سيارتين أخريين، انطلق صاحباها يزمران باستمرار ويلوحان لأندريا ترك حارس الأبواب كوخه الحجري وأخذ يتقدم بطريقة متعمدة نحوهما.. فقالت برجاء:

- حسن جداً.. سأرافقك، أوصلني إلى المطار.

بعد دقائق، كانت جالسة قربه في السيارة الفرنسية الصغيرة. عندما نظرت من فوق كتفها، لاحظت أن المقعد الخلفي مليء بأشياء تعرفها، الحقائب التي ستأخذها معها إلى انكلترا. فتحت حقيبتها لتتأكد من وجود تذكرة السفر التي اشترتها لها خالتها، وأعطتها إياها في اليوم السابق. ثم نظرت جانبياً إلى أندريا فإذا فمه مزموم بخط مستقيم متجهم، وعيناه ضيقتان. بدا قاسياً عنيداً مثلها تماماً، فشعرت وكأنها اصطدمت بشيء لا يتزحزح.

سألت ببرود: «ستأخذني إلى المطار.. أليس كذلك؟»

نظر إليها شزراً لكنه لم يرد. كان الزحام كثيفاً في هذا الجزء المركزي من المدينة، وكان مشغولاً جداً بنظر إلى السيارات الأخرى يراقبها مفضلاً ذلك على الخوض في جدال معها. رأت دنيس من النافذة الجانبية الدخان البني يتصاعد من مدخنة مصنع نحو السماء الزرقاء الصافية.. لو كانا متجهين إلى المطار لكان اتجاه الدخان خلفهما لا أمامهما.. أدركت فجأة أنه يتجه نحو الطريق الساحلي. قالت برصانة

www.liilas.com

وتكبر:

ـ قلت لك.. أريد الذهاب إلى المطار.. وهذه ليست الطريق الصحيحة.

لم يرد مرة أخرى، بل تمكن من الإسراع، والاتجاه نحو أسرع خط سير.. صاحت به: «أندريا.. ماذا تفعل؟»

ـ سأصحبك إلى مكان نستطيع فيه أن نتكلم. لا يمكنني تركك تسافرين، ليس بدون..

وضعت كلتا يديها فوق عينيها:

ـ آه! أرجوك.. أرجوك.. لا تسرع هكذا!

كانت أعصاب معدتها تتقلص، كانت قد نسيت أن آخر سيارة ركبتها تحطمت ولكنها الآن، وهو يتجاوز سيارة شحن كبيرة تذكرت الرعب الذي انتابها يوم الحادثة، شعرت بالغثيان فقالت متوسلة:

ـ أرجوك خفف سرعتك.. أحس بتوتر شديد.

تمتم: «لا يدهشني الأمر.. فقد شاهدت الاصطدام ولا أريد أن تتكرر الحادثة مجدداً».

ـ وهل لحقت بي ذلك اليوم؟

رد بصوت ساخر يسخر به من نفسه:

ـ لم ألحق بك في الحال.. كنت سأتركك ترحلين.. غويت تمثيل دور القاسي الساخر حتى النهاية.

همست: «ليتني أعرف سبباً لقسوتك.. لماذا لا تثق بي؟»

رد بصوت منخفض:

ـ يحتاج التغيير إلى وقت طويل.. يتأخر المرء في التكيف عندما يخطو أحدهم مجدداً إلى حياته.. رفضت لمدة طويلة أن تستغلني أية امرأة عاطفياً.. نعم كنت أرضى بعلاقة عابرة أما الالتزام فكنت أرفضه أشد الرفض.

ـ بسبب إرنا؟

ـ كيف عرفت بها؟ من أخبرك؟

ولكن لم يكن في سؤاله غضب هذه المرة.

ردت بجفاء: «يبدو أن الجميع سواك كان مصمماً على أن أعرف قصتها.. أولاً شقيقتك..»

ـ ماذا قالت..؟ لماذا تدخلت..

ـ ذكرت أمامي أن امرأة كنت تعرفها انتحرت، وأنك أحسست بأن الانتحار ما كان ليحدث لو تصرفت بشكل مختلف.. أظنها قالت لي هذا لتمنعني من الذهاب والإقامة معك تلك الليلة.

ـ ونجحت.. أليس كذلك؟

خفف سرعة السيارة ثم انعطف إلى طريق ضيقة وعرة، كانت تتمايل بين ضفتين صخريتين، وما هي إلا بضع لواتي حتى برز أمامهما بريق أشعة الشمس فوق صفحة المياه.

انتهت الطريق عند شاطىء صخري، يمتد منه رصيف حجري بشكل حماية لمراكب صيد صغيرة.. كانت بعض الأكواخ المنفردة المؤلفة من طابق واحد ومن سقف قرميدي أحمر تنتشر على طول الشاطىء. وكانت شباك الصيد تحيط بالحدائق، والعوامات المتألقة الألوان تعطي لوناً جميلاً للمياه.

أوقف أندريا السيارة أمام البحر، وأطفأ المحرك ثم أنزل نافذته لتهادى إلى مسامعهم ضوضاء البحر.. كان الصخب الأبدي، وزمجرة الموج الرتيبة يقترب ثم يعود بعدما يتكسر على الصخور.

سألها: «من أخبرك أيضاً عن إرنا؟»

ـ والدي.

ـ وكيف عرف؟

ـ قرأ الخبر في الصحف.. أخبرني أنك كنت متورطاً في فضيحة تتعلق بموت امرأة كانت يوماً زوجتك.. أصيب بالقلق حينما عرف أنني كنت معك في «إيسكرأونا».. قال إن سمعتك سيئة، وهو يخاف أن

www.liilas.com

تخويني.

نظر إليها نظرة ساخرة ضيقة ثم أخرج علبة سكائر من جيب قميصه.

- وكان عنده عذر جيد للقلق.. أليس كذلك؟.. فقد كان هذا يحدث في الكهف.

- هل كنت متزوجاً بأرنا؟

- سي.. منذ ثماني سنوات وستة أشهر فقط.. لكن لا لزوم لتعرفي شيئاً عنها.

أشعل سيجارته ونفث دخانها، فردت عليه تجادله:

- لا أوافقك الرأي. إن كانت علاقتك بها أثرت في تصرفك معي، فأظن أن عليّ أن أعرف.. هل.. هل أحببتها؟

- لا.

- لم تزوجتها إذن؟

- لأنني كنت أحمق.. هل لنا أن نترك هذا الموضوع؟

تجاهلت طلبه: «أكانت جميلة؟»

- أجل.. بطريقة مجنونة فاسدة. لا أنكر أنني لم أكن منجذباً إليها جسدياً.. كنا على علاقة لم تدُم. فقد تركت الكلية التي كانت فيها طالبة والتي كنت فيها أستاذاً للرسم ثم ذهبت لأعيش في مستوطنة للفنانين في كاليفورنيا الجنوبية فكان أن لحقت بي.

- لماذا؟

- قالت إنها حامل، وإن الطفل طفلي.

كان يتكلم من بين أسنانه، ثم التفت إليها:

- اسمعي دنيس.. هذا تاريخ قديم.. وما من رجل يحب النفخ في الرماد البارد أو الاعتراف بأنه كان عرضة للاستغلال العاطفي يوماً.

- وهل صدقتها؟

- سي.. صدقتها.. فهذا ممكن.

- وهل أصررت عليها أن تتزوجها؟

- طلبت مني هذا، وقالت إنها تخاف من أبيها. أشفقت عليها، فتزوجتها في مراسم مجنونة حضرتها بنفسها، وأكدت لي أنها قانونية. ولأنني أجنبي وبسبب الحرية التي تسود تلك البلاد وافقت على ما تفعل، ثم جاءت الصدمة.. أبلغت أباها.

- ألم يوافق؟

- لا.. لم يوافق بل اتهمني بأنني صائد ثروات، وقطع المصروف عن ابنته حالما رفضت تركي.. لم لا؟ مني هذا لكن لم يعجبها أن تعيش عيشة الفقر التي كنت أحياها يومذاك.. وبعد ستة أشهر تركتني لتعود إلى منزل «داديّ»!

- لكن.. ماذا حدث للطفل؟

رد والمرارة في صوته مجدداً:

- لم يكن هناك طفل. ادّعت لتدفعني إلى الزواج بها.

- لماذا؟

- لأنني فعلت ما لا يُغتفر.. تركتها. وهي مدللة تظن نفسها قادرة على الحصول على أي رجل تريد، شرط أن تنهي هي بنفسها أية علاقة، ولم تكن معتادة على أن يتخلى عنها رجل.

- ماذا فعلت عندما تركتك؟

- انتقلت إلى المكسيك حيث بدأت مهنة الكاريكاتير.. أما هي فطلقتني بسهولة، ولم أكن أظن أنني سأراها مجدداً.. لهذا ذهلت عندما جاءت إلى مارتينيز.. جاءت إلى إسبانيا مع زوجها الثالث، وهو مخرج سينمائي. كان عندي معرض لوحات في المدينة في ذلك الوقت، فذهبت تراه ومن هناك عرفت أين أعيش. ويبدو أنها استصوبت المجيء لتراني.. والله وحده يعرف السبب.. كانت في حالة اضطراب.

- كيف؟

- فقدت جمالها وباتت غير قادرة على الاستقرار نفسياً وكان لي

عينيها نظرة غريبة متقززة.

ـ وما كان خطبها؟

ـ المخدرات. قلت لها أن ترحل ولكنها واظبت على زيارتي قائلة إنها كانت تعسة جداً في زواجها الثاني والثالث إذ لم يكن أي من الزوجين مناسباً لها.. ثم جاءت يوماً وقالت لي إن لديها ما يكفي من أدلة لمقاضاة زوجها الثالث وإنها الآن قادرة على طلب الطلاق وإن ذلك يعني أن بمقدورنا الزواج من جديد.. غضبت منها، وقلت لها أن تخرج وألا تعود.. بعد يومين وجدت جثتها في البحر شمالي مارتينيز.

ـ لكن غرقها ليس غلطة منك.

ـ ربما لا.. ولكنني رحت أفكر في أنني لو عاملتها بلطف أكثر، واستمعت إليها، لتمكنت من مساعدتها و.. يا الله! كاد هذا التفكير يسلبني عقلي.. واضطررت إلى الابتعاد إلى مكان ما طلباً للهدوء والسكينة وللتفكير في الأمور وإيجاد الحلول.. وكانت حالي قد استقرت عندما ظهرت أنت، جميلة، ضائعة، ومرتبكة.

نظر إليها تلك النظرة الكئيبة التي طالما أرسلت الرجفة في جسدها وأكمل:

ـ ووقعت في حبك من النظرة الأولى.

فرقع بأصابعه: «هكذا.. بدون سبب أو مقدمات بل بدون تعقل حتى».

همست وهي تنظر إليه بذهول: لم ألاحظ ذلك قط.

ـ لم أشأ أن تتكهني شيئاً. كنت غاضباً من نفسي لأنني علقت بطريقة لا إرادية في وقت كنت فيه واثقاً أنني حالة مستعصية. حذرت نفسي منك.. مع ذلك أردت مساعدتك والعناية بك وحمايتك.. رحت أداب على تذكير نفسي بأنك ابنة المرأة والرجل اللذان خانا أبي..

استوت في جلستها ترمقه بغضب: «لم تخن أمي أباك».

رد بمرارة: «ألم تفعل؟ أظن أنها فعلت. استخدمت جمالها وفتنتها

لتغريه بزيارتها.. أوقعته في شرك إغوائها إلى درجة أنه بدلاً من السفر مباشرة إلى فرنسا، كما خطط له من ساعده على الهرب، تراجع وذهب إلى مارتينيز ليودعها».

ـ لكنها لم تفعل ذلك متعمدة.. كانت وحيدة وتعسة.

ـ وكان هو تعساً كذلك، وعاطفياً جداً، لا يمكنه تحمل رؤية شخص آخر يعاني.. لذلك حاول مساعدتها بالإصغاء إليها وبمحادثتها.. لولا ذهابه إليها لظلّ حياً حتى الآن، ولما رجعه والدك معها وتخيل الأشياء.

ـ ارتكب والدي غلطة.. قال لي هذا بنفسه.. كان يحبها كثيراً فجن من الغيرة عندما رآها مع والدك.. صدق أنهما عاشقان، لكنه لم يكن يعرف والدك، لم يتعرف إليه ولم يعرف من هو.

ازدادت لهجته مرارة:

ـ ولم ينتظر ليسأل.

فتحت فمها لتصيح به، ثم أقفلته بسرعة.. ما الفائدة؟ كان الجرح الذي عانى منه بسبب وفاة أبيه جرحاً عميقاً.. فقد كان كبيراً ليعرف ما حدث، وهذا ما لوّن تصرفه نحو والديها ونحوها، لكنها لن تستطيع البقاء في السيارة معه، لتتركه يعاقبها على ما حدث.

فتحت الباب وخرجت صافقة الباب وراءها. استأثرت الريح القاسية من البحر بشعرها، تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال، واستأثرت أيضاً بثورة فستانها التي انتفخت وكأنها علم..

صفق باب السيارة الآخر ثم سمعت قدميه تسحقان الحصى تحتهما وما لبث أن أصبح أندريا قربها.

ـ إلى أين؟

صاحت: «إلى أي مكان يبعدني عنك. إن كنت غير قادر على مسامحة ونسيان ما حدث لوالدك، فلا فائدة من المضي في الحديث. لقد جرى ما جرى منذ زمن طويل دفع خلاله أبي ثمن غلطته بطرق عديدة..

أنبه ضميره دائماً، لأنه كان معجباً بمعتقدات والدك.. وعندما ماتت أمي، عانى كثيراً. كان يعرف أنها لم تكن تحبه كما كان يحبها.. وإذا كان هذا يريحك، فسأقول لك شيئاً: لقد ثأرت منه عبري!».

ارتدت عنه تتابع المسير على الشاطىء.. كان قاربا صيد يتحركان نحو الشاطىء، تتأرجح مقدمتاهما وتميل أطرافهما من جانب إلى آخر.. وفوقهما سرب من النورس الرمادي والأبيض سابح في السماء.

مع أنها كانت تسير على الشاطىء المليء بالحصى وطحلب البحر بحذائها العالي تابعت طريقها.. فهي في الواقع لا تعرف ماذا تفعل غير هذا. نظرت إلى ساعتها.. بعد خمس عشرة دقيقة يُفترض بها أن تكون في الطائرة المتوجهة إلى باريس، في طريقها إلى لندن.. حتى وإن عادت إلى السيارة، وأصرت على أن يوصلها أندريا إلى المطار فستضطر إلى الانتظار عدة ساعات قبل حلول موعد إقلاع طائرة أخرى.

ثم، لم تكن متأكدة أنها تريد أن ترحل خاصة بعدما رأت أندريا الذي اعترف لها بأنه واقع في حبها بجنون مثلها.

الحب بدون تعقل! لم يكن من المعتاد أن تفكر في تصرفات أبويها مع والده.. فالثلاثة أحبوا بلا تعقل، فكان أن شكلوا مثلثاً مأساوياً.. لكن أيجب أن يقود مثل هذا الحب غير المتعقل إلى كارثة؟ ألا يمكن أن يقود إلى السعادة أحياناً؟

تعبت من محاولة السير على الشاطىء بحذائها العالي الكعبين فخلعته وراحت تسير حافية القدمين فأحست بالرمل البارد الرطب يداعب جواربها المنسدلة.

ما إن وصلت إلى حاجز صخري وعر يسد عليها الطريق حتى قعدت على تلك الصخور تراقب البحر، وتفكر في أن المسألة كلها مسألة كبرياء.. فما هي وما أندريا بمستعدين للتنازل لأن كبرياءهما تحول دون الاعتراف بالهزيمة.

أدارت رأسها إلى الشاطىء الذي سارت عليه وقفز قلبها.. إنه يتقدم

نحوها. نعم ببطء ولكنه لحق بها. وبداء في جيبي سرواله. كان يتوقف أحياناً لينظر إلى البحر، أو ليلتقط حصوة يرميها إلى الماء.

تابع المسير حتى وصل إلى حيث تجلس وهناك أسند جسمه إلى الصخور غير أنه لم يكن ينظر إليها بل إلى البحر..

قال ببرود: «سآخذك إلى المطار الآن».

وضم يديه حول شعلة الثقاب يشعل سيكارة.

قالت بجفاء: «لقد فاتتني الطائرة التي حجزت لي فيها خالتي مقعداً».

فكرت: هكذا ستكون الأمور دائماً إن بقيت معه.. سيتمكن دائماً من إيلامها وذلك بأن يقول عكس ما تتمنى سماعه.

هز كتفيه: «هناك غيرها.. أيجب أن تذهبي إلى انكلترا؟»

ـ ليس هناك في إسبانيا من أبقى من أجله.. ليس لدي أقارب ثم عليّ أن أجد عملاً أكسب به قوتي.

ـ وماذا ستفعلين؟

ـ سآخذ دروساً في السكرتاريا، فأنا أتكلم ثلاث لغات. ولا بد أن هذا أمر مفيد.

ـ أنت تتطلعين إلى الاستقلال؟

كان عليها الاعتراف بأنها لا تتطلع إلى هذا، فلم تكن تروق لها فكرة ذهابها للعمل عند أشخاص قد لا يعجبونها، ولا يبدو لها هذا استقلالاً.. ثم، لديها إحساس بأنها ستتمرد في كثير من الأوقات على الشروط التي قد يضعها رب عمل متطلب متزمت..

قالت محبطة: «ليس تماماً.. إنما ليس لدي بديل سوى الجوع!».

ـ عيشي معي إذن.

علقت أنفاسها في حنجرتها فالتفتت تنظر إليه، ولكنها وجدته ما يزال ينظر إلى البحر فلم تستطع بذلك أن تعرف ماذا وراء اقتراحه..

سألت بعفوية مماثلة:

- إلى متى؟

- قدر ما تشائين.

- أندريا.. لا أفهم لماذا تطلب مني هذا مرة أخرى، لكن إن كان السبب شعورك بالشفقة عليّ خشية أن أتصرف كما تصرفت إرنا..

- لا أشعر بالشفقة عليك، ولا أتوقع أن تتصرفي كما تصرفت إرنا. أعرف الآن أنك أبداً لست مثلها. لديك روح المقاومة والكثير من الكبرياء.. الكثير الكثير من الكبرياء.. أنت كوالدك لا يمكن أن تعترفي بالهزيمة.

- وهل تعترف أنت؟

تبادلا النظرات مرة أخرى كما حدث يوماً من أيام أيار في مطبخ «إيسكرلونا».. وقال لها:

- أجل.. أعترف.. ولقد اعترفت بلحاقي بك عندما تركت مرسمي.. لحقت بك، إنما ليس لأمنعك من القيام بفعل أحمق. لحقت بك بعد دقائق كنت فيها أمعن التفكير. فبعد رحيلك أدركت أنني لا أريد أن ترحلي، وأنني كنت سعيداً برؤيتك تقفين عندي.. كدت لا أصدق أن عيني ترياننك هناك وما أشد ما كانت سعادتي.

صاحت به: «إذن.. لماذا لم تقل ذلك؟ لماذا كنت شريراً معي؟»

- كان نوعاً من الدفاع عن النفس، أملته عليّ كرامتي.. وجدت صعوبة في تغيير عاداتي. يا الله!.. كيف لي أن أعرف لماذا تصرفت كما تصرفت؟

أخذ يصيح بها مضيفاً:

- لم أجرؤ على الأمل بأنك جئت لأنك تحبينني، بل لم أكن واثقاً من أنني أحبك.. أقسم بالله أنني أردت أن تبقي معي.. ولكن سرعان ما طغت عليّ عاداتي السيئة حينما قلت لي إنك جئت فقط لرؤيتي قبل أن تغادري إسبانيا.

- وما الخطأ في ما قلته؟ إنه صحيح.. لم أطق السفر قبل أن أراك

مجدداً.

- وقبل أن تشاطريني فراشي، أو هكذا بدا لي الأمر فجأة.. فكان أن قلت ما كان يدور في ذهني.. وكان أن ضربتني ورحلت.. ولا أومك على ذلك، فلو كنت مكانك لفعلت ما فعلت أنت.

- لو أنك لم تقاطعني.. لو أنك أصغيت إلي لما قلت ذلك.

تمتم: قلت لك إننا كلانا يتكلم كثيراً.. ماذا كنت ستقولين؟

كان هذا حينما كادت تبوح له بالحب.. كان هذا حينما كادت تتخلى عن كرامتها.. والآن عادت إليها الفرصة، ولا فائدة من الرد بكلمات حادة غاضبة. عليها الآن أن تبني ذلك الجسر فوق ذلك الشق، تبنيه بالحب، أو تعيش ما تبقى من حياتها نادمة.

بدأت ببطء: «كنت سأقول إنني لن أستطيع مغادرة إسبانيا بدون أن أراك.. لأنني.. أحبك. أحببتك عن غير إرادة مني مثلك تماماً.. حاولت الاعتراف بذلك في الكهف.. لكنك لم تصدقني.. كنت غارقاً في سخريتك وهزوفك عن النساء.

رد بوحشية: «خفت أن أصدق».

- خشية أن أستغلك؟

- نعم.

- إذن، لماذا طلبت مني الإقامة معك عندما تركنا الوادي؟

- جزئياً، لأساعدك.. وجزئياً، لأنني كنت أريدك إلى درجة لم أعبأ معها بالنتائج.

- لكنك غيرت رأيك.

استدار إليها ثانية:

- أنا غيرت رأيي؟ ظننت العكس. ألست أنت من غيّر رأيه بعدما قالت لك أختي المتطفلة إن من غير الحكمة أن تتورطي معي. لهذا كنت غاضباً عندما عدت إلى المرسم.

ابتعد عن الصخور.. ووقف أمامها.. وقال:

- هاأنذا، مرة أخرى، أسألك.. هل ستأتين معي؟

- أتريد أن آتي معك؟

- نعم.. أريدك.. أريدك كثيراً..

ها هو قد قال ما تريد سماعه، لأول مرة.

قالت بتعمد بغية اختباره إلى أقصى مدى:

- وإن لم أقبل؟

بدأت عيناه تبرقان:

- إذن، ربما عليّ أن أخطفك فعلاً.

مد كلتا يديه، ليمسك شعرها الذي يتلاعب به الهواء.

- سأخطفك.. وكأنني عضو العصابة الجاهل الذي ظننت أنني هو.

همست: «آسفة لأنني نعتك بالجاهل، ما كنت لأفعل لولا خوفي منك».

سألها بدهشة: «كنت خائفة مني؟».

- أجل كنت خائفة من الوقوع في حبك، الوقوع في حب قوي شديد. إنما لا حاجة بك إلى خطفي.. سأذهب معك، لأنني أريد أن أعيش معك وأن أقاسمك كل شيء، ولا أعبأ حتى وإن كان بيننا فروقات. ولكن لو كنا نتبادل الحب لما عجزنا عن ردم كل الفروقات.. حاولت قول هذا لك من قبل، لكنك لم تصغ إليّ ولم تصدقني.. آه! أرجوك، قل إنك تصدقني.

كان رده عناقاً أخرسها شعرت خلاله بأنها تتأرجح في الفضاء، مع أسهم نارية تفرقع حولها.. تعانقا بشغف وتعلق الواحد منهما بالآخر على الشاطىء فيما النورس وطيور البحر الأخرى تصيح فوقهما وفيما البحر يتنهد بين الصخور..

تمتم أندريا بصوت أجش:

- أيكفيك هذا لتصدقي؟ هل تصدقينني لو قلت لك إنني أريد منك أن تبقي معي إلى الأبد؟

ابتعدت دنيس عنه وهي ما تزال بين دائرة ذراعيه.

- هل أنت واثق أنك تريد هذا إلى الأبد؟

- واثق إلى درجة أن أطلب منك الزواج.

- أتزوجك؟

تمتمت الكلمة بدون أن تستطيع إعطاءها صوتاً.. ثم سألت:

- لماذا؟

رد بوقار مع أن المرح يلمع في عينيه:

- لأن عادات هذه البلاد تقتضي حينما يطلب الرجل من المرأة أن تعيش معه، أن يتوّج هذا الاتحاد ويصبح قانونياً، بالزواج.

- لكنك لست مضطراً للزواج بي.

- لماذا؟.. ألديك اعتراض على الزواج؟ آه.. نسيت.. بسبب زواجك، هربت إلى ليوني.

فكر قليلاً وعيناه باردتان ساخرتان:

- أمر مؤسف جداً.. لم يعد باليد حيلة.. سآخذك إلى المطار إذن.

راقبته يبتعد عنها مذهولة، كان ظله يسير معه على رمال الشاطىء..

ماذا حدث الآن؟ ماذا قالت فأغضبه؟ آه! لن تعرف أبداً موقعها معه. فلماذا توافق على البقاء معه؟ ستكون الحياة معه عذاباً مستمراً.. ولكنها لن تكون مملة، لن تكون عقيمة كما كان سيحدث فيما لو تزوجت خوان. معه ستحصل على البهجة، ومعه قد تصل إلى قمة السعادة وبين ذراعيه ستلقى الاكتفاء.

أخذ طرف الصدف الحاد يخز قدميها تحت الجوارب وهي تركض خلفه.. لحقت به وأمسكت بذراعه، كما أمسكها عندما حاولت أن تتركه في المستشفى.. سرعان ما توقف، واستدار يواجهها.

سألها بأدب بارد:

- ألديك شيء آخر تقولينه؟ ظننت أننا أنهينا الكلام.

- أجل، لدي ما أقوله.. لماذا لا تريد أن أعيش معك بدون زواج؟

www.liilas.com

تنهد ساخطاً: «لقد حاولت شرح الأمر لك.. إنها تقاليد البلاد، إن لم تتزوج تناولتنا الألسن بالسوء خاصة أنت.. وستنظر إليك نساء القرية باشمئزاز وأنا أحبك أكثر من أن أسمح بحدوث أمر كهذا. ما أشعر به نحوك يدفعني إلى جعلك تحملين أولادي الذين أريد لهم أن يولدوا في رحاب الزواج..».

صاحت وهي تضع أناملها على فمه:

ـ أووه.. توقف.. توقف! لا حاجة بك إلى قول المزيد.. أفهمك.. وهذا هو شعوري أنا أيضاً، إن دفعي للزواج برجل لا أريده هو ما جعلني أتمرد.. أحبك، وسأكون سعيدة جداً بالزواج بك ولكنني كنت أعتقد أنك قد لا تريد الزواج ثانية بعد تجربتك مع إرنا..

طفت على وجهه مرارة ذكرى الماضي ثم تلاشت، وقال ببطء:

ـ لم يكن ذلك زواجاً بما للكلمة من معنى بل كان كارثة، والأفضل أن ننساه.

احتضن مرة أخرى وجهها بيديه، ونفرس في عينيها ثم سرعان ما تحولت عيناه إلى لون غامق، جعل الرعشة تسري في عروقها:

ـ أعرف كويربدا.. أنني لا أستحق أن تحبني امرأة جميلة مستقلة مثلك، لذلك أردت أن أصبّ عليك الهرب مني.. أردت أن أقيدك بقيد قوي. هناك طريقتان لهذا.. إحداهما الزواج.

همست تميل إليه وكلها شوق إليه:

ـ والأخرى؟

ـ أن تكوني في أحضاني أكثر وقت ممكن، لأتأكد أنك تشعرين بحبي وبحاجتي إليك، ولئلا تبحثي عن الحب في مكان آخر، كما فعلت أمك.

لامس شفتيها بأصابعه.. فقالت:

ـ الآن عرفت أن خالتي جولي تحدثت إليك.

رفعت يديها إلى كتفيه، تعقدهما على عنقه، فاعترف:

ـ لقد فعلت.. وأفهم الآن ما حدث بين أبي وأمك أفضل بكثير. لقد أخبرتني الكثير عنك عندما كنت أقلها من وإلى المستشفى. وكانت فكرتها أن آتي إلى المستشفى وحدي لأصحبك اليوم، إنها امرأة حكيمة.. ولكن، قولي لي كويربدا.. هل سترافقينني إلى مارتينيز لتتزوج هناك في أقرب وقت؟.. ليس لدي ما أقدمه لك.

رفعت وجهها إليه وهمست:

ـ كل ما أريده هو أنت.

ضمها إليه مجدداً باستسلام مجنون متهور، ثم رفعها بين ذراعيه ورافقها إلى السيارة.

سرعان ما كان يسرعان نحو بيرميو، ومن بعدها مارتينيز.. إلى يسارهما كان البحر الأزرق، موشحاً بالفضة تحت سماء آب اللاهبة.. وإلى اليمين، تلال غنية بأشجار مرتفعة ذات لون أخضر غامض.

وكانت سعيدة جداً، راضية بأن تكون حيث هي الآن، مع أندريا متوجهة إلى المنزل القديم في مارتينيز.

* * *